# الموت عادة يومية

اسم الكتاب: الموت عادة يومية

اسم المؤلف: شكري سلامة شكري

**الناشر: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية**

شكري، شكري سلامة
الموت عادة يومية: رواية / شكري سلامة شكري
القاهرة: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية، 2024
186ص، 20سم
تدمك: ISBN 9789778806120
1 - القصص العربية
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 2024/9036

**مجموعة بيت الحكمة للثقافة**
شارع التحرير- ميدان التحرير- القاهرة
ت:+20223936038 +201030328888
info@baytelhekma.com
www.baytelhekma.com

**الإشراف العام**
د. أحمد السعيد

**مدير التحرير**
عمرو مغيث

**متابعة وتنفيذ**
علي قطب
أحمد الصادق

**تدقيق لغوي**
محمد عبد المرضي

**الغلاف**
إسلام أحمد

**الإخراج الفني**
حسام عنتر

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

جميع إصداراتنا متوفرة على منصات البيع الكبرى والمكتبات بالدول العربية والعالم.

**للطلبيات والحجز:**
Tel./ Whatsapp: +201030965555

**حقوق الطبع والتوزيع محفوظة**
©baytalhekma

**لا يجوز نسخ أو استخدام أي جزء من هذا الكتاب سواء بالتصوير أو الطبع أو إعادة إنتاجه عبر أي وسائط مسموعة أو مرئية أخرى، أو عبر أي من وسائط تسجيل واسترجاع البيانات دون إذن كتابي من الناشر، وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية.**

# الموت عادة يومية

رواية

شكري سلامة شكري

## الإهداء

إلى روح:
أحمد عطا،
حسن ماهر،
يوسف الميهي،
وإلى روح أبي.

# الفهرس


"كعادة البدايات القلقة" ..... 11

"أي ذكرى تصلح لتبدأ الحكاية؟" ..... 13

"يشبه حلمًا عنك" ..... 19

"عودة للبدايات" ..... 71

"لو كنا سنبدأ الحكاية من جديد!"..... 77

"ذكريات أكثر بعدًا لا تصلح للبدايات" ..... 109

"تبتعد مثل رجل يجر حزنه"..... 117

"لأننا لا نجيد قول وداعًا" ..... 123

"كل لقاء كان بمنزلة وداع" ..... 135

"مجرد رجال سقطوا"..... 153

"نهاية حلم خرج من دائرة الأحلام" ..... 167

"كم نهاية نحتاج إليها لتنتهي حكاية للأبد؟" ..... 177

"ما يشبه النهاية" ..... 181

"هل كان عليك أن تتعلم كل الكلمات
لتقول فقط
وداعًا أيها الأصدقاء؟!"

وديع سعادة
قصاصة وقعت من إحدى الشخصيات سهوًا

## "كعادة البدايات القلقة"

صرخوا بعلو صوتهم فجأة: "لم يبقَ منهم أحد على قيد الحياة"، وجدوهم بعد سقوطهم من السماء رجالًا متماثلين، منفغرة أفواههم ومكومين.

لم يرَهم أحد يسقطون. الجميع سمعوا صوت ارتطامهم، لكن أحدًا لم يرَهم. وتساءلوا وحبال الحيرة تمتد حولهم، ملائكة أم شياطين؟ لكن لم يكن منهم من يدري. قال بعضهم الشياطين لا ترتدي الثياب البيضاء. وتعلل الآخرون بأن الملائكة لا تسقط من السماء.

أما أنت فقلت مجرد رجال سقطوا، ومضيت قلقًا.

قلت مجرد رجال لأنك تعرف حكاية ارتدى فيها كل الرجال ثيابًا بيضاء.

ولأنك تحتفظ بصورة في قلبك لأشخاص بعينهم، حين يسقطون، سيفتحون أفواههم عن طيب خاطر.

يودون لو يغنون.

وهذا ما أقلقك.

## "أي ذكرى تصلح لتبدأ الحكاية؟"

صوت في رأسك يخبرك أن رفقة يوسف كانت الأفضل دومًا، أو الأفضل بعد الاغتسال في مياه النيل وتدخين سيجارة حرة. وربما ستظل الأفضل حتى في الشارع الجانبي للمقابر، أو داخل القبر نفسه. ورأسك هناك وجسدك هنا. تتقلب على فراشك كأنك ستغرق في الذكرى للأبد. الملاءة تحتك باردة، وارتعاشة صغيرة في جانبك الأيمن لا تتوقف، نصفك العلوي شبه دافئ لكن جسدك بأكمله يرتعد، ورأسك لا يدري لِمَ يستدعي الذكرى الآن بالتحديد، لكن لا مفر؛ فضوء الصباح البارد سيذكرك دومًا بكل الليالي التي جافاك فيها النوم. ولا يغيب عن بالك اقتراح يوسف بأن تجولا حول المدينة، ولا تصدق أن وقتًا بهذا القدر قد مضى وأنت جالس الآن مثل غصن أو ورقة شجر تجرفك رياح الذكرى وتستدعي لحظة ذهبت إليه.

تناديه فينزل ولا تمهله لحظة حتى تقول: "كأني لو انتقلت حموت!".

يسقط الكتاب من يده ويرتمي ليعانقك، تستغرقك محبته، تراها في عينيه، تسمع الحيرة في صوته، وهو يحاول تهدئتك، لكن أحدًا منكما لن ينتبه للقصاصة الورقية التي سقطت من داخل الكتاب، ولن تعود إليه أبدًا.

تكاد تبكي على كتفه، وبعد دقيقة من البكاء المكتوم تفصل جسدك عنه ببطء، وتسيران بعيدًا عن منزله. في الطريق تخبره عما كتمته في صدرك وتراكم على مدار ثلاث سنوات. يلتقط أنفاسه بصعوبة وهو لا يفهم، لكنه يعلم منذ مدة أن الحزن موجود في أعماقك، ولا يريدك أن تفتش عنه، فيخبرك في هدوء وهو يربت فوق ظهرك: "فال الله ولا فالك".

يأخذك لتناول الطعام، أو للحديث عن شيء أكثر حياةً من الموت، ويدرك هو بعد جولة طويلة حول المدينة بعدما تبادلتما حديثكما المتخم عما يمكن أن تعنيه الحياة، أن الطريق في النهاية قد أفضى بكما إلى الشارع الجانبي للمقابر، وقد أصبح أكثر حيرة من قبل، يحمل قلبك بيد، وديوان وديع سعادة باليد الأخرى، ولا يدري ماذا يقول. وتيسران طويلًا، طويلًا جدًّا حتى تصلا قرب شجرة توت عارية ووحيدة.

أي ذكرى عليك أن تذهب نحوها الآن؟ نهاية السير الطويل أم صورة صبيان يتسلقان الأغصان في غفلة الزمن؟ رؤياك تتشكل عن حبات توت سمراء تذوب في الفم، ليست لها طعم أو رائحة محددة، مذاقها لاذع وبارد كنسيم هب

فجأة، مذاقها حلو ودافئ كعناق دائم، تمد يدك إلى الغصن قاطفًا عنقها الأخضر من بين الأوراق، وتنتقل بعدها بعينين مذهولتين إلى الصفاء اللامع للسماء، تتذكر أباك لما أخبرك عن رغبته في لمس السحاب والإمساك به. يريد أن يحوز كل شيء. منتهى الأنانية.

أخبرك أنه لو أمسكه سيضعه في زجاجة خضراء كتحفة فنية يتركها جواره، وكلما مل الحياة؛ يخرجها لينظر إليها، فيستعيد صبره وقدرته على المضي مع الزمن. مسكين ضاعت السماء من أمامه، وتتساءل: كيف ضاع هو من حياتك فجأة؟ كيف فقد صبره مع الزمن؟ لماذا حين أراد أن ينظر لشيء يجعله لا يفقد صبره لم ينظر إليك أنت؟!

في الذكرى الباهتة وضعت قدمك في الهواء، لم تكن تقصد الطيران، كذلك العالم لم يقصد أن يسقطك، لكنك تسقط تبتسم، وتُكسر ساقك اليسرى، يسندك يوسف بصعوبة إلى البيت.

في المدرسة تتعدد محاولاتك لإقناع أصدقائك بأنك طرت في السماء لوهلة ذاك النهار، لا يصدقك أحد، إلا يوسف يؤمن ويصدق، ويقوم فيزعق فيهم يخبرهم بصوت عالٍ: "رأيته بأم عيني، اللي ان شا الله يارب ياكلهم الدود لو كنت بكدب". ترتاب في أمره لكن إيمانه يقر في قلبك، صدقك لينصفك، يحبك، وهو ما تعرفه

بقلبك دون أي شيء آخر، ومنذ تلك اللحظة تقتربان أكثر، ويكثر الحديث بينكما عن الطيران، تشعران كأنه بالفعل قد حدث، لكن كم من الوقت بالفعل قد انقضى؟ لا ينقصك سوى أن تغمض عينيك فوق الفراش وتقول: وقت طويل.. كل ذلك قد مضى.

تحث خطاك نحو الشجرة سابقًا يوسف، تجلس أسفلها، تمدد ساقيك. يقترب يوسف ويرنو إليك. عيناك تلمعان ودموع صغيرة انبجست تكاد تتساقط. تشعر بسخونتها. هي حرارة الخيانة لا أكثر، خانك التجاسر وفشلت.

ينظر إليك بوجه يائس.

تبكي بغزارة كما لم تبكِ من قبل.

أجمعت حينها موتى الزمان كلهم لترثيهم بدموعك دفعة واحدة؟

لهذا وحده نضبت دموعك.

يتركك يوسف تنفس عما في قلبك.

وقلبك وحدك -أنت عمر حافظ إبراهيم- يخبرك أن لديك رغبة عارمة رغم كل شيء في تسلق الشجرة لإعادة كل شيء كما كان، أن يعود بك الزمن إلى الماضي حيث العالم لم يتبدل ولم يرحل أحد. قبل أن يرحل حافظ حاكي القصص، قبل أن تضيع حكايته التي تربطكما بشكل خفي.

ما تزال الدموع على خديك، تنظر إلى يوسف بأسف أنك رغم توسيته بكيت، لكنكما تعلمتما منذ زمن ألا يخجل أحدكما من الآخر، أن البكاء ليس عيبًا في حضرة الأصدقاء، وأن الدموع يمكنها أن تجري متى شاءت، وأن القلب يجب أن يستريح متى أحب أن يستريح، تمسح عينك بكمك وتقول: "تعرف، ممكن هو اختار أن يكون دا مصيره، الاختفاء والضياع".

تصمت برهة، ثم تكمل: "تعرف.. كان بيحب يحكيلي دايمًا حكايات، حكايات تبدأ بـ"كان ياما كان، يا سعد يا إكرام، ولا يحلى الكلام، إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام"، فنردد أنا وهو: عليه الصلاة والسلام. ثم يقول يفتتح الحكاية: "هذه حكاية خالدة"، وتأخذ الصور بعدها تتشكل أمامي.. ربما طمع هو الآخر في أن يكون حكاية خالدة لهذا اختار الموت أو الضياع..".

يقاطعك يوسف: "الحكاية تضمن له الخلود.. طب إيه رأيك لو أحكيلك حكاية؟".

تبتسم وتقول "موافق نسمع حكاية".

يجلس جوارك ويمدد ساقية على الأرض، يضع الكتاب جواره، ترخي جسدك، تضع رأسك فوق قدميه الممددة أمامك، تنظر إلى أوراق التوت التي تسرب شعاعًا ضئيلًا من

الشمس، يخبرك: "هي ليست حكاية لكنه حلم طويل، يمكن أن يكون أطول حلم رأيته".

يصمت لدقيقة: "السبب الحقيقي وراء الموضوع دا أني شعرت أنك كنت هناك".

تسأله وأنت ترفع عينيك إليه: "مش عاوز تحكي؟!"

يجيبك: "عاوز أحكيه طبعًا، لكن لنفرض أنه ليس مفهومًا، هو مجرد حلم عنك أو عني، لا أدري، عاوز أحكيه يمكن حد فينا يعرف هو عن مين".

واتفقتما أخيرًا على أن تبدأ الحكاية.

## "يشبه حلمًا عنك"

يبدأ يوسف بصوت منغم: "كان ياما كان، يا سعد يا إكرام، ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام".

ترددان: "عليه الصلاة والسلام".

يضحك ويقول: "يا رب ما تجعله حكاية خالدة".

تضحكان، ووحدك تتذكر أباك، لكنك عرفت أن عليك العودة لتنصت إليه، فتغمض عينيك لتسمعه وهو يقول: "رأيتني عائدًا ليلًا في قطار الدرجة الثالثة في مساءٍ ما، أجر الوحدة في العربة، ورأيته حين استقر فوق المقعد، طل من المقعد المقابل، غريبًا في محياه له شارب عريض ووجه يميل إلى السمرة من كثرة تعرضه للشمس، وفوق حاجبه الأيسر ندبة، تفوح منه رائحة مألوفة كأني لازمته طيلة حياتي، أو كأنه أنت. عيناه مثلك متوقدتان بالقلق، ينظران في كل مكان. ودون سابق إنذار وجدته يتحدث ولم يكن في العربة

سوانا، فظننته مجنونًا، لكن اتضح أنه ليس كذلك فلم يكن يحادث نفسه، بل يحادثني. كل ذلك بدا لي حقيقيًّا. أخذت أستمع إليه حتى بدأت أتعرف إلى ملامح قصته، وعرفت أن كل ذلك حدث له دون إذن مسبق لما كان عائدًا في مساءٍ ما في قطار كذلك القطار الذي قابلته فيه، قطارًا يقله دائمًا وهو عائد من عمله في طنطا، لكن في تلك الليلة تلقى خبرًا مفزعًا في أثناء عمله، وما يتذكره جيدًا أن القمر كان بدرًا في تلك الليلة، أنوار العربات جميعها مطفأة، والقطار كأنه هُجر منذ زمن. وتحت ضغط الوحدة جلس فجعلته الظلمة يسترخي، لكن الوحدة أخافته رغم أنه اعتاد النوم وحيدًا طوال فترة عمله، هو نفسه لم يستطع تفسير الخوف الذي تملكه ليلتها، فصارت معه الأشياء العادية أكثر غرائبية، فالقمر -وهو شيء اعتاد أن يراه كل ليلة بل اعتاد الاستمتاع به- شعر أنه غريب في لمعانه الشاحب ليلتها كما لو كان شبحًا لميت قديم.

وارتجف كل ما بداخله ينتظر وقوع مأزق، أو على الأقل حادث غريب، وثبت في ذهنه أن تلك الليلة لن تمر بسلام. جلست أمامه أتفحصه بفجاجة، فوجدت شاربه يهتز مع انفراج شفتيه كلما تحدث، ولاحظت ارتجافة في يده ورعشة تختلج في صوته لا تلائم صرامة وجهه القاسي، ولما لاحظ أني أتأمله، أكمل قصته حتى يجبرني على الإنصات وعدم التركيز مع وجهه: "لم أكن أحفظ من القرآن سوى آيات

صغيرة أخذت أرددها طوال الطريق، لأن إحساسي بكارثة قادمة قد ترسخ في صدري".

أراد تجاهل إحساسه بأنه مقبل على مشكلة ما أو كارثة، وحاول أيضًا تجاهل الشباك والقمر الذي قال عنه: "لم يكن من السهل تجاهله كان يترصدني، وعادت إليَّ صور من طفولتي كنت أرتعد فيها منه كلما وجدته يطل على من بلكونة بيتنا". وعبر عن خيالات أخرى انتابته بأكثر الكلمات غرابة: "أردت كذلك أن أتذوق القمر، وكنت على يقين أنه سيكون باردًا وصلبًا مثل الحديد".

رأى القمر يحاول اجتذابه إليه كفراشة توشك أن تحترق. وحاول التركيز مع صوت تهادي عجلات القطار، وبث ذلك في صدره شعورًا مطمئنًا بأنه يقترب من الوصول. ولما كاد يستقر؛ جاءه من بعيد صوت ظل يتردد في فضاء القطار دقائق. حاول أن يقلده لي وهو يضحك: "تيرمس تيرمس يا لوز... حد عاوز تيرمس؟ تيرمس يا لوز".

ضحكت، حتى شعرت أن أركان الحلم تهتز، وفي قصته كان ما يزال ينصت للصوت المتكرر المختلط بصوت هدير عجلات القطار في محاولات بائسة للتخلص من التوتر والخوف، أو لعله أراد أن يسقط في النعاس ولا يستيقظ إلا مع الصباح، وحين بدأ جسده يسترجع ذاكرة إنهاك اليوم الطويل الذي قضاه في العمل تحت الشمس بدأت جفونه تنسدل.

شعر بهما يتحركان لا إراديًا ثم سقط في دائرة النعاس. بدأت الأشياء داخله ترتجف من البرد، وأخذ يستيقظ وينام بالتبادل ليسقط في حركة دائرية لا بداية ولا نهاية لها، كان يستفيق فزعًا كلما تهادى القطار أسرع أو ارتفع عن القضبان الحديدية بفعل السرعة واهتز كما يهتز الدراويش، وخفت الصوت الآتي من عربة أخرى وتباعدت حروفه: "تيييرمس.... يـ..ـا لووووز".

يقلد الأصوات فانتشى من الضحك، وعاد يخبرني أنه لم تمضِ دقائق حتى انخفضت سرعة القطار، فاستيقظ بشكل كاملٍ وبداخله شعور أن كل ما يحدث له واقعي أكثر من اللازم. تحسس كل شيء حتى يتعرف إلى ملمسه وحقيقة وجوده، تلمس جسده كالمجنون ليستشعر حقيقة وجوده الغريبة، وسجل اكتشافاته في رأسه: "الكراسي من الجلد والبلاستيك والقطار نفسه ليس من المعدن، بل من طبقة بلاستيكية غريبة أقرب إلى البسكويت منها إلى البلاستيك مع ذلك صلبة، ورغم صلابتها توحي بأن مذاقها مالح!".

يعلق يوسف ليخرجك من مجرى القصة: "تدفق كلماته عن القمر جعلني أشعر كأني بالفعل عالق في حلم طويل".

ثم يعود يستكملها وأنت ما تزال مغمضًا عينيك: "كان أمامي يحكي أنه بعد ما تحسس كل الأشاء مثل المجنون جاءته فكرة فيها من البساطة ما فيها من حل كبير لمشكلته: لو أنه انتقل إلى الصف الثاني لن يكون مجبرًا على رؤية القمر،

وساعتها قام مسرعًا ينقل حقيبته جواره، وفي تلك اللحظة توقف القطار.

لم يفزع، كان بالفعل موقنًا بـأن شيئًا مشابهًا لذلك سيحدث لا شك. قلق ألا يلحق الجنازة، وألا يحمل بيديه نعش أمه ولا يودعها وداعه الأخير. ولما وصل إلى هنا وجدت وجهه يلين، كأن شيئًا داخله انهار فجأة، ووجدته يخبرني:

"هناك بُعد آخر لم أحدثك عنه، هو بُعد الحزن والجزع اللذان صعدت بهما إلى القطار.

ساعة ما جاءني الخبر تخلَّت قواي عني وتخليت عن صبري الدائم منذ زمن...".

يخبرك أنه سمعه يتنهد من جذور روحه، أنه في حلمه شعر بصوت تنهيدة الرجل في قلبه، وهو يقول: "آه.. أشياء كثيرة لا تُطاق.. سأقول لك شيئًا واحدًا: الحياة قاسية، أشد قسوة مما تتخيل!".

إنه أخذ ينظر إليه بعينيه ليضطرب قلب يوسف، وحينها يخبرك "ورأيتك داخله".

تفتح عينيك لا تصدق أنه أنت، لكن تريد أن تصرخ، فتصمت وتعود ليوسف وهو يخبرك: "لا أعرف كيف أفسر ذلك لكني شعرت أنه مجرد تمثال من الجبس، ولو لمسته سيتحطم ثم ستظهر أنت...".

المهم حين تنهد قال: "لو قصصت عليك قصتي كلها؛ لبدت مجرد هرولة في الفراغ، هروب من شيء يلاحقني ومن غبائي أني كنت أركض دون النظر للخلف، لكني لم ألحظ ذلك إلا متأخرًا، ليس الركض، بل حتى لو تابعت الركض منه فذلك الشيء سيلحق بي، لم أدرك ذلك إلا حين تعبت ووقفت لألتقط أنفاسي، أدركت أن كل ذلك الركض لم يكن له أي داع، كانت ردة فعل كسمكة انتُزعت من المحيط واستكانت. مثل ميت. فلنعد للموضوع. حين توقف القطار قلبت نظري في العربة لعلي أجد إنسانا شرد عن بصري في البداية فلم أجد".

حين توقف القطار انتشرت الأسئلة في رأسه، كان يتساءل في نفسه عن سبب التوقف هنا، وقال ربما عطل ربما هي محطة صغيرة، كان يظن أن القطار سيتحرك بعد دقائق على الأكثر، لكن ذلك لم يحدث، بل ما حدث أن القطار ظل واقفًا ما يقرب الساعة، وكانت بالنسبة إليه أشبه بعمر طويل من القلق.

وقبل أن ينتصف الليل بدقائق، وكان القطار لا يزال واقفًا، قرر أن يفتح باب العربة ويخرج إلى الأرض الغريبة التي تترامى أمامه، ولما خرج لم يجد شيئًا غير أرض هامدة مليئة بأشجار واقفة بصمت مطلق، ريف طويل لا ينتهي، وترعة آسنة تفصل بينه وبين الأرض الخضراء الباردة، خرج

ولم يجرؤ على التحرك خطوة إلى الأمام خوفًا من أن يتحرك القطار في أي لحظة، وبعد دقيقة لا أكثر عبر الترعة بقفزة واحدة، وأخبرني ساعتها: "كنت مدفوعًا إلى ذلك، سرت في طريق لا أدري نهايته، ولا أدري أكنت بالفعل أتحرك أم أني كنت ساكنًا في مكاني أجر أقدامي في موضعي".

عبر على أرض ممهدة، أشبه بطريق واضح المعالم، وكانت النباتات الخضراء الطويلة تتشابك من حوله، فيما يشبه تغطية ضخمة، الطريق أمامه طويلة، ولا يدري إلى أين تفضي ولا متى تنتهي، اشتمَّ رائحة المياه الآسنة، اشتمَّ كذلك رائحة جيف تفسخت، وأخذ المكان يمتلئ بروائح كريهة تمتزج ببعضها، يجد أمامه ترعة تفضي إلى أخرى، وتتفرع منها جداول ومساقٍ صغيرة، ثم لم يعد الطريق مستقيمًا أمامه، أخذ يتعرج، وأخذت النباتات تقل في طولها وتختفي تشابكات الأغصان فوق رأسه، حتى كشفت له القمر. علم أنه ضل طريق العودة، لكنه كان مشغولًا بأنه ربما ضل الحياة إلى الأبد، وكان رغم كل ذلك قد قرر بينه وبين نفسه ألا يتراجع، وهذا ما قاله بالضبط: "ربما لم أكن أنا من قرر، كان القمر، وكان ذلك بالتأكيد من سحره". وأخبرني أنه شعر بالبرد يلسع جسده كل دقيقة، رغم أنه لم يشعر بواقعية ما يحدث له، وقال مثل حكيم أضاعته حكمته: "لا فاصل بين واقع وخيال غير ما نحدده بأنفسنا".

لا تدري لم يقطع عليك القصة، وتتساءل من يواسي الآخر بالحكاية؟ لكنك من فرط ما تساءلت لم تعد تعرف كيف تجيب، تشد على عينيك حتى تكادان تختفيان، وتنصت للحلم الجديد:

"يذكرني ذلك بحلم غريب آخر رأيته، كان محوره رجل آخر، رجل غريب جدًّا، في أغلب الأوقات تدور أحلامي عن رجال يأتون ويروحون، ذلك الرجل أتذكر ملامحه كاملة، كانت عيونه زاوية أشبه بكاتب حكيت لك عنه، كافكا لو تتذكر، كان أشبه بكافكا لكن في تصوراته عن نفسه، كأنه منسحق إلى ما لا نهاية، يقطع الكلام وفي صوته زنة غريبة أنفه مستقيمة وعظام وجهه بارزة، لكن جمجمته ضئيلة كجمجمة فأرة صغيرة، أسفل عيونه أكثر سوادًا من باقي جسده ربما من الأرق أو الحشيش أو لعله من الجلوس الطويل أمام الكمبيوتر ومشاهدة الأفلام الإباحية.

أسنانه متآكلة، شعره كأنه تم قرضه من الأمام هو في هيئته يشبه القوارض ببشرة قرمزية شبه ذابلة كأنه خارج من مستنقع وبيده سيجارة صغيرة وسحب نفسًا منها، ثم حادثني عن الموت دون إذن مسبق. رأى نفسه يسقط من السماء رفقة القمر وحينها علم أنه مات، لم أصدقه لكني كنت مرعوبًا من هيئته، كان الوقت ليلًا، كانت لديه فكرة مغلوطة عن القراءة، أخبرني أنه قارئ عتيق حين لمح في يدي ديوان وديع سعادة،

أخبرني أنه يعرف الكثير عن الكتب وأنه بالفعل قرأ الكتاب الذي في يدي، وأخبرني ليدلل على ذلك بأن صاحب هذا الديوان قد مات، ضحكت من سخافته، لكنه استرجع من ذاكرته نصًّا من قصيدة، وابتسم وقال:

قطرة قطرة

ينزل الموتى على بابي

ومركب يتوقف من أجلي تحت الشمس

اندهشت، شعرت أن كل ما حولي يتداخل في بعضه، ضحك وقال: "هذا ما رأيته بعد ما سقطت، وقبل أن أموت بلحظة، مركب صغير يتوقف هناك من أجلي".

واستيقظت.

يصمت يوسف يتأمل حلمه كأنه يسمعه للمرة الأولى، كأنه يراه من جديد، لكن على صدى أفكاره الحالية، تشعر بالحيرة في صمته، لكنه لا يمهلك وقتًا لتسأله عن قلقه لأن يعود فيقول: "الرجال في أحلامي غريبون لأقصى درجة، أشعر أحيانًا كأنهم امتداد لي ولأفكاري، وأن كلامهم كلامي وظنونهم ظنوني، إلا ذلك الرجل في الحلم الأول كان كأنه أنت، الرجل الذي يشبه كافكا، الذي سقط من السماء كان أنا، أما الآخر فكان أنت، اخترقتني أفكاره لأنها ليست ملكي، الرجل الذي يشبهك كان هناك وكان لا يزال جالسًا أمامي في

القطار يحكي قصته اللانهائية، وقال إنه سار فوق أرض غريبة لمدة طويلة. الزرع أمامه يخبره بأنها مليئة بالحياة. فلاحون وحيوانات، لكن السكون الشديد يخبر بأنها ميته. لم يدرِ أكانت الأرض التي يسير فوقها حقيقة أم أنها من صنع خياله، بدا مترددًا وكذلك أنا، لكن حين وجدت إصرارًا في وجهه انتهيت إلى التسليم بقصته في النهاية مغلوبًا على أمري من طولها.

وفي لحظة ما في أثناء سيره تشققت السماء وبان ضوء الصباح: "عملية ولادة شديدة الصعوبة. زي ما تكون خلق الحياة من جديد لكن بشكل غير واقعي".

يعود يوسف ليتأمل في ما حكاه: "لم أفهم لِمَ أَصَرَّ أن كل شيء غير واقعي، في أحيان كثيرة من ثقل الحقيقة وكثافتها لا نستطيع أن نعدها واقعية رغم أنها وقعت بالفعل. تحدث أشياء لا يصدقها العقل باستمرار كأن هناك مسافة دائمًا بيننا وبين العالم، كأننا منفصلون عنه، في حين من المفترض أننا جزء منه، نتقبل ما يمكن أن يحدث نصدق ونؤمن بكل تلك الأشياء الغريبة".

على بالك كيف أعادك لذكرى قديمة بسؤاله: "فاكر لما كنا أصغر، وطلعنا فوق الشجرة؟".

يشير إلى الفروع العالية، وتفتح عينك لتجد أشعة الشمس الصغيرة ما تزال تتسرب خيفة من بين الأوراق، يكمل يوسف

كلامه: "تتذكر حين قلت أنك طرت صدقتك، لِمَ لا؟! البشر يطيرون أحيانًا!".

ترد عليه بابتسامة، وأنت عاقد يديك أسفل رأسك فوق قدمه: "وأحيانًا يسقطون من السماء".

يضحك ويفهم المغزى، ويكمل: "المهم، لما نزل ظل يمضي في طريقه الطويل حيث لا يدري، حتى وجد شجرة ضخمة ذات فروع دقيقة تنظر إلى السماء على حافة الترعة.

اتجه نحوها وقرر أن ينام أسفلها وحين صار لصقها كشفت عيناه بيوتًا طينية بعيدة على امتداد بصره، أراد أن يغفو حتى يستريح من سيره الطويل وبعدها يستقصي حقيقة البيوت وسكانها، لكنه لم يستطع أن يغفو رغم أنه عاش يومًا طويلًا مستيقظًا، وكاد يفقد صوابه من العالم الواقف أمام عينيه، أراد أن يغلقهما ولو لحين ليختفي العالم، كان يود أن يدس برأسه في التراب مثلًا حتى لا يراه مدة من الزمان".

وأخبرني: "أما بشأن الجنازة والدفن؛ فلم أعد أتذكر شيئًا. استدرت خلف الشجرة لأقضي حاجتي، وحين عدت كان هناك رجل يقف بعيدًا مديرًا ظهره لي، كان بلا شك قرويًّا يرتدي طاقية بنية طويلة، ممسكًا في يده عصًا غليظة هي غصن شجرة كامل والأغنام من حوله".

بدا الريف أكثر اخضرارًا حينها، الشمس كانت تشق السماء ببطء، وبدت الترعة أوسع من قبل، وسمع صوتًا غريبًا

يأتيه من فوقه، فرفع رأسه إلى الشجرة فكان هناك فوق أحد الأغصان قرد ينظر إليه بعينين مستطلعتين، ففزع وساعتها انتبه الرجل إليه، وأتاه يجر قدماه، وقف أمامه وسأله: من أنت وما جاء بك هنا، فأخبره أنه وجد نفسه تحت تلك الشجرة يحاول أن ينام من التعب، ساعتها أخبره القروي ألا نوم في ذلك المكان، اقترب منه وأخذه من يده، فانصاع له وتحرك معه حتى وقفا على ما يشبه الربوة. هناك رأوا بعيدًا على مقربة من أجمة برتقال حشدًا من الناس يرتدون جلابيب بيضاء ناصعة يتجهون ببطء ناحية أشجار البرتقال الكثيفة وهم يحملون محفة فوقها شيء ضئيل، وقف القروي جواره رافعًا أصبع السبابة في الهواء يراقب الحشد في صمت. وبدا غريبًا بالنسبة إليه أن تستقبله الأرض بجنازة صامته كتلك، ونمت بداخله رغبة ملحة في أن يسأل عن المتوفى الذي بدا أن أهل القرية جميعهم يودعونه، لكنه كتم أسئلته في صدره.

وحين اختفت الجنازة تحت أشجار البرتقال، ابتسم له القروي وأخبره أنه ضيفه وألا حاجة له لتفسير أي شيء بعد الآن. أشعل سيجارة وقال: "يعيش القروي في بيت من دور واحد على مساحة كبيرة بجانب أهل القرية الغريبة".

لم يخبره عن أصله ومن أين أتوا وكيف وصلوا إلى المكان، وثبت في ذهنه أنهم نموا من الأرض فجأة كعشب رباني، وحين وصلوا إلى البيت استقر الرجل ولم تكد تمضي

ساعة حتى وجد القرية كلها واقفة أمامه كأنها تنتظره منذ زمن طويل، واستقبلوه بصياح جماعي: "مرحبًا مرحبًا مرحبًا". استضافه القروي بين أسرته الصغيرة، ثم علمه أشياء عديدة مثل ركوب الحمار، وذلك قبل أن يعلمه أي شيء آخر، وبرر له القروي ذلك بقوله: "ركوبتك أهم من الأكل والشراب؛ فدونها ستضيع إلى أن يعثر عليك الموت، هم وحدهم يعرفون الطريق".

ثم تابع في صوت هادئ وهو يضرب بعصاه الأرض ضربات رأسية كأنه يثقبها: "هنا لا يمكن لأحد أن يخفي آثاره ورغم ذلك فما أكثر من يضيع!".

الحكاية غريبة بالفعل، لكني أخذت أصغي له حتى لا أضيع في الحكاية، وهنا أخذ يقول لي: "أعطاني ملابس غير ملابسي التي ارتديتها، والتي فقدت بعضها في حقيبتي في القطار، وبدت ثيابًا ملائكية بيضاء ومريحة عباءة لا حدود لخيوطها اللانهائية التي لا تتقاطع كأنها قطعة واحدة من الحرير. ساعتها كل ما كان يشغلني أن أنجو في تلك البيئة الغريبة، وما دمت مع هذا الرجل فلا ذكر للموت".

في الليل اجتمع مع رجال القرية، قربتهم النار، وشعر بينهم كواحد منهم كأنه ابن قديم للمكان. أخذوا يحكون قصصهم تباعًا ويناقشون تجارتهم، ويتغنون بنغم هو خلاصة أصوات الأرض، وربما تشاركهم فيه الديوك، لهم نغمهم

الخاص الذي لا يمكن أن ينمو في مكان آخر غير مكانهم، ولما توقف عن الحكي في تلك اللحظة؛ تأملت وجهه ولم يكن فيه ما يميزه سوى ندبة فوق حاجبه الأيسر، فسألته عن سببها، فقال: "لا أتذكر فهي أقدم من أن أتذكر سببها، ولكن لعلها بسبب ذلك القرد الذي حين رأيته أحسست خطره".

وأخبرني أنه كان حينها راقدًا أسفل أشجار موز بالقرب من بيت القروي يحاول النوم آخذًا في تأمل النجوم الساطعة، والقمر الذي عاد يتلألأ، لكنه لم يعد يخيفه، يراقب مواضع النجوم المختلفة التي كانت أكثر من أن يحصيها، وفجأة وجد القرد يدني إليه وينظر في عينيه مباشرة نهض فزعًا، فقال: "شيطان ياخدك".

فرد عليه القرد وقد على صوته ضاحكًا: "ياخدك وياخد اللي جابوك".

اندهش، جحظت عيناه، كأن شيطانًا مسه، وقال لي وهو يبتسم:

"كاد يُغشى عليَّ من المفاجأة، والأدهى أني لم أستطع التحكم والسيطرة على أطرافي، ولم أستطع النهوض، حينها هبشني القرد بأظافره فوق عيني مسببًا لي ما تراه، وصرخت صرخة شقت السماء حتى وصلت إلى بيوت النائمين فهرعوا إليَّ مسرعين".

كان القرد قد انصرف، وظل الناس حوله يتساءلون في ضجة وذعر عما حدث، ويسألونه عن أمره وسبب صراخه، فأشار إلى جبهته التي تتفجر منها الدماء، وكاد يبكي من النار المتقدة في جبهته، أرسلوا في طلب فتاة تعرف من أمور المداواة والطب الكثير، وحين جاءوا بها أخذت تضمد جراحه، ولم يكن يستطع فتح عينه من شدة الألم فلم يرَها، لكنه أحس بنهديها يقتربان من جسده.

"كانت ابنة القروي، وهذا ما اكتشفته فيما بعد، كان لجسدها رائحة جميلة كشذى برتقال وياسمين، وحرارته مختلفة، أخذت ألهث وأتعرق بسبب الجرح، وبعد أن انتهت من تضميد جرحي حكيت لهم القصة، فلم يصدقوني، وأخبرهم القروي الذي يرعاني بأنها الحمى، وأني أهلوس بسببها، وأن الذي جرحني محض شيء، كحجر مثلًا أو قطعة خشب حادة تعثرت بها، وعلى ذلك كدت ألا أصدق ما حدث لي لولا وخز الجرح الذي ينبض في رأسي الذي كان يجبرني على تصديق أن ذلك المعلون كلمني".

تلك كانت سيرة الندبة فوق وجهه. حين أنظر الآن إلى تلك القصة كيف اخترقت قصته الأصلية أجد أن الحكايات في الأحلام متشعبة، ما إن تبدأ حتى تتفرع، وتظل تتفرع حتى يصبح من الصعب التحكم فيها وسردها بشكل جيد أو حتى تذكرها كاملة، فحين انتهى من حكاية

النذبة عاد يخبرني أنه بدأ يمل المكان، وصار يرى الحياة فيه مجرد عذاب، وإنما قذفت به المقادير فيه إلا ليذوق عذاب الجحيم وليكفر عن خطاياه رغم أنه لم يكن يتذكرها، كأنه بمجرد خروجه من القطار قد نسي كل شيء. حين حكى عن أيامه تلك أخبرني أنها سارت على نمط واحد، في الصباح يستيقظ ليجلس تحت شجرة موز ضخمة يتأمل الحياة العجيبة التي يحياها، وتثار دهشته يوميًّا من تتابع الجنازات واستمراريتها، ففي الصباح جنازة عابرة وفي المساء جنازة عابرة كأن الناس هناك لا شغل لهم سوى الموت، لا تسمع صريخ أحد ولا تشعر أن أحدهم يوشك على الموت جميعهم يبدون بصحة جيدة، لكنه سرعان ما يأخذون في الاختفاء، يموتون فجأة دون إشارة مسبقة، وفي هدوء تام كأن الموت عادة يومية، ومن كثرة التكرار التي يراها قد ثبت في نفسه أنه مذنب وسيلقى حتفه هو الآخر".

تتذكر جيدًا كيف صمت، وتعرف لِمَ؟ لأنه سيخدش روحك بقصة أخرى عن شكري، ويقول: "يمكن من كثرة الموت حولك تشعر كأنك حتموت، وربما هذا شعورك الآن، أنا أيضًا مررت بذلك الشعور تتذكر شكري؟".

بالطبع تتذكر الببغاء العنيد والحر في حجرته، تتذكر ألوانه الزاهية، ولا يهملك يوسف دقيقة لتجيبه كعادته في اندفاعاته للكلام للعناق، للبكاء وحتى للوقوع في الحزن: "كان أكثر

من صديق، فاكر كنت محفظه كام بيت شعر؟ كنت بتخانق معاه كأننا مولدين فوق روس بعض، أشتمه فيردلي الشتيمة". تدرك اهتزاز صوته وهو يقول: "يطير فوق الكتب، ولا ينزل رغم كل التهديدات، ويصيح "هل غادر الشعراء من متردم؟" فأضحك، وأتركه يجول مثل فارس فوق الكتب يقفز من كتاب لآخر وهو يسألهم هل غارد الشعراء من متردم؟ تتذكر فتضحك، تتذكر حين كنت تدخل غرفته، وتجلسان، ويفتح له القفص يتحرك أمامك ليصيح "قفا نبك قفا نبك" كم كان حيًّا ومرحًا، وتكاد تغرق في ذاكرتك عنه.

لكن يعيدك صوت يوسف: "وفي يوم دون سابق إنذار تلوى تخشب ومات، كأنه لم يتغنَّ يومًا بالشعر، كأنه لم يقفز يومًا فوق ألف كتاب، كأنه لم يحفظ الشعر، ولم يعرف المرح والحرية قط، دفناه، وبكيت واندفعت في البكاء عليه كأني خسرت حتة مني، أفهم شعورك وشعوره، حين ترى الموت تتساءل عنه، لما يحوطك إلا لو لم يكن يقصدك".

تراه يمسح عينيه بكمه، ويعود يكمل لك حلمه: على العموم مش موضوعنا أوي، المهم أن الرجل في الحلم شعر في رحلته بأن الأمور متماثلة في كل يوم؛ فاليوم هو أمس حيث مات أحدهم، وأمس الأول حيث مات أحدهم وشبع موت، وهو الغد طبعًا حيث سيموت أحدهم بكل تأكيد وقال لي: "ونازعتني نفسي أن أعود من حيث جئت،

ذهب إلى الشجرة، وحاولت الانعطاف مع الطرق، مشيت بمحاذاة المياه، وعبرت أسفل تعاقدات الأشجار، حتى وصلت بالفعل إلى خط سكة حديد بدا مهجورًا، جلست هناك في انتظار أي قطار، وكنت قررت أن أركب في أي كان ما يمر من هنا، وقلت لنفسي هقف على القضبان أشاورلهم عشان يقفوا، لكن مر يوم ولم يأتِ أي شيء، وشعرت بخيبة أمل محصلتش، حاولت الانتظار يومًا آخر، كنت أقضي حاجتي في العراء تحت الأشجار وآكل من أي ثمر أجده في أي مكان، كنت آكل أوراق الشجر، ومن كثرة الإفراط فيه شعرت كأني تسممت؛ أصابني مغص قوي وما يشبه الحمى، وقررت أن أعود، وقبل أن أستطيع الوصول، شعرت أن الدنيا تدور بي وهنا حدث شيء غريب".

عثر عليه القروي قبل أن يُغشى عليه، لكن كيف عرف أنه هناك؟ لا يدري! هل راقبه؟ هل توقع بغريزته؟ لا أحد يعلم، لكنه جاءه وأنقذه حمله فوق حماره، وعاد به إلى القرية الصامتة، غسل معدته وجهز له طعامًا جيدًا، فأكل الرجل حتى امتلأ. تركه القروي يستشعر النقاهة ذلك اليوم، وحين عرف أنه يتوق للنوم صنع له قهوة صعبة المذاق فاشتعلت عيناه، وشعر بأن رأسه تكاد تنفجر من كثرة ما يتوق للنوم، لكنه لا يستطيع، ولم يكن يتذكر متى كانت آخر مرة نعم فيها بنوم أو رأى فيها حلمًا. وخرج القروي وتركه.

كان المساء يغطي الدنيا حين خرج هو الآخر من الدار إلى العراء مستشعرًا انتماءً جديدًا للوجود. سار ناحية الترعة التي كانت بامتداد بحر عظيم هذه المرة، ووجد القروي والقرد وإلى جوراهم مركب صغير.

كانا يمسكان شموعًا قصيرة بيضاء تضيء عتمة المياه أمامهما.

اقترب أكثر من ظليهما وسلم عليهما، ثم قفز إلى المركب جوارهما دون أن يحادثهما، ولما استقر الجميع في المركب بدأ القرد في التجديف.

كان القمر ما يزال كاملًا فوقهم، وسطعت الشموع الصغيرة على المركب، وأخذت تضيء بعض الأجزاء من سطحه الصغير. القرد يجدف متجهًا بهم إلى المجهول، والمياه تبدو أمامهم لا نهائية، وبدا التجديف لا ينتهي. وأصابه صداع كأنه سيشق رأسه إلى نصفين، ولما وصل لذلك الجزء تغيرت نبرته فجأة، وأخبرني بهمس وهو يهرش في ظهره بيده اليمنى:

"بدأت تظهر أمامنا شعلة ضوء صغيرة من بعيد، ثم أخذت تقترب منا شيئًا فشيئًا، حتى حاذتنا، أدركنا أنه قارب كقاربنا يسبح فيه ثلاثة ظلال في أحجامنا نفسها ينظرون إلينا كما ننظر إليهم بعجب.

نزع القروي المجداف من القرد، وبدأ يدفع قاربهم نحو قارب الغرباء، وحين اقترب بالقدر الكافي، ظهرت لهم ملامح الظلال وصارت أكثر وضوحًا، وهنا تأكد وأمسك بحقيقة الأمر.

ففي تلك اللحظة همس إليَّ وفي عينيه بريق واضح: "كانوا نحن".

فسألته: "ولم يتعجب منكم أحد؟!".

رد وهو يضحك: "تقريبًا هم معتادون ذلك، أما أنا؛ فشعرت بطقطقة في شعر رأسي، ربما ابيضت واحدة أو أكثر من الخضة، ولما التفت لهم وجدتهم قد قفزوا إلى القارب الآخر؛ فقفزت معهم".

رمى القروي طاقيته الريفية الطويلة في الماء، كتحية، وحتى يشبه كليًّا الرجل الذي كان في القارب أمامهم، ونهض الثلاثة الذين يقابلونهم بآلية وفي عيونهم وسن غريب، واستقبلوهم كما لو أن الأمر اعتيادي، كأنهم يقابلون أنفسهم كل مساء يركبون زورقين مختلفين.

حينها وقف أكبرهم سنًّا وهو شبيه القروي، وقال في صوت رزين يعرِّف نفسه وأصدقاءه: أنا عيسى بن هشام، وهذا أبو الفتح الإسكندري، وذاك صديقنا بديع الزمان، لما وصل إلى هنا همس إليَّ مجددًا، وقد بدأ القطار يهتز

كأرجوحة نوم عصبية المزاج: "حينها عرفت من أنا، وقد ضللت طريقي عن نفسي إلى مدًى لم يسبق لي زيارته، كنت قطعت شوطًا طويلًا بعيدًا عني، ثم عدت إلى ذاتي، عدت عيسى بن هشام".

فسألته: "آنت عيسى ابن هشام حقًّا؟".

أشعل سيجارة، بعود ثقاب أخرجه من الجيب العلوي لجلبابه الأبيض، وضحك كعادته: "حسبتك أكثر ذكاءً".

ولم يجب عن السؤال، حتى إن كان اسم شبيهه عيسى بن هشام؛ فذلك ليس سوى انعكاس في مرآة، كيف آمن أنها حقيقته؟ لم يعد يهمك كيف يخرج من الحكاية، وكيف يحاول تفسير كل ما يحكيه، أنت مغمض عينيك فقط وتستمع، حتى لو وجه لك السؤال لن ترد، تسمعه فقط وهو يقول: "أحيانًا نحتاج أن ننظر للمرآة طويلًا كي نعرف أنفسنا؛ كي نرى ما خلف الصورة الواقعة أمامنا، المرآة وسيلة عبور ليست إلا، يا عمر، لا تفتح أبوابها إلا حين تطيل التحديق بها. أنا لا أستطيع اعتبار الناس الآخرين مرآة لي. لن أرى نفسي في الآخر، إلا لو كان هذا الآخر هو أنا فعلًا. الرجل من حلمي حين عرف أنه عيسى بن هشام لم يعرف من أحد غريب، بل جاء إلى نفسه في زورق مختلف صحبة رفاقه ليعرفه على نفسه، ربما المرايا أكثر من يعرفنا فعلًا دون أن تطلب من كلمة".

تتذكر كيف رنت تلك الجملة في رأسك بعد أشهر، تتخبط في جدران ذاكرتك، وأنت تمضي إلى السوق في عمر أفندي، تدلف حارة جانبية، تشتري مرآة كبيرة بطولك تقريبًا، ويخبرك الرجل أن الصنائعي سيكون عندك الليلة في العنوان الموصوف، يثبتها لك في أحد جدران الحمام. أهذ الجسد العاري في المرآة جسدك؟ ليس سهلًا عليك أن تنتقل من ذكرى لأخرى، لكنك تعود لحكايات التخبط، وتحاول الإمساك بترتيب الزمن، ماذا كان في البداية؟

في البدء كانت الكلمة، وهذه جملة ترتبط بالبدايات أيضًا.

في البدء كان الأسى، تتخطى اقتراحات الذاكرة التي لم تعد قادرة على فهم الزمن في خطيته، وتقفز فوق ما يمليه عليك لسانك؛ لأنه اعتاد الربط بين البدء والكلمة والأسى، وتعود حين أخبرك أن المشكلة ستكون حين لا تفهم من هو عيسى بن هشام وكيف وصلت تلك الأسماء الغريبة بهذا الانسجام إلى حلمه الطويل، وأن الحقيقة أنه قرأ كتابًا عن مقامات بديع الزمان وجده صدفة عند بائع جرائد في ميدان صيدناوي، وتلك الأسماء هي الشخصيات الرئيسية في الكتاب، وتسمعه وهو يقول: "المهم، أخبرني الرجل الذي اتضح لي أنه يحمل اسم عيسى بن هشام وهو لا يستطيع

تجاوز اندهاشه من الأمر: "انضم ثلاثتنا إلى ثلاثتهم، أو كيف أقولها؟ انضممنا إلى أنفسنا. كانت حالة شديدة الغرابة، وحاولت أن أفهم حقيقة نفسي الآن، ووجدتها فرصة عظيمة؛ فليس يُتاح للمرء كل يوم أن يذهب رفقة نفسه إلى حيث يكتشف ذاته. ومضينا بالقارب إلى الضفة الأخرى التي لا نعلم أين تقع، والتي لا بُدَّ أنها موجودة؛ فهم بالفعل قد جاءوا منها. القارب يشق طريقه في سهولة، والقمر ينعكس على صفحة الماء بلمعان فضي بارد، وكل شيء بلون الغموض الخانق، لكنا لم نُضطر أن ننتظر طويلًا؛ كنا بالفعل اقتربنا من الوصول، بدأ جسد السماء في التفتق مجددًا عن النهار، وقبل أن نهبط من القارب سألتهم كيف وجدوا القرد، فأخبرنا عيسى بن هشام الآخر أنه لم يجد القرد، بل القرد من وجده، وضحك بصوت عالٍ، ثم هبطنا إلى الشاطئ.

المدينة ليست بعيدة عن أرضنا لذلك ضمنا أن نعود.

سرنا ثلاثًا خلف بعضنا كل رفقة متجاورة حتى لتبدو للرائي صورة وانعكاسها في مرآة، وظهرت السماء تكاد تصفو، وسمعنا صياح ديكة آتٍ من بعيد، ولحظة ما نظرنا خلفنا كان الثلاثة أشباهنا قد اختفوا، انتبهنا للأمر متأخرين، لكننا أكمل سيرنا: أنا والإسكندري وفوق كتفه بديع الزمان متبعين صوت الديكة حتى وصلنا إلى أول دار قابلناها، ووجدنا عمال الغاز يأخذون في الصعود على سقالاتهم،

يرفعون مواسير الغاز الحديدية فوق الواجهات المزينة بالآجر. حاول الإسكندري التعرف إلى المدينة الغريبة التي قُذفنا إليها. ولما بدأ الناس في الخروج من بيوتهم أصبحنا موضع سخرية لهم؛ فكلما لمحنا أحدهم نظر إلينا باستغراب وبخاصة القرد الجالس فوق كتف الإسكندري.

ووجدنا أنفسنا وقد توغلنا في المدينة حتى لمحنا أحد الصبية الذي حاول قذف القرد بحجر، لكنه سرعان ما تراجع حين فتح القرد عينيه في تحدٍّ وتهديد. أراد الإسكندري أن يعرف اسم المدينة مرارًا لكنه فشل، ما إن يسأل أحدهم حتى يكون قد نسي ذلك الشخص هو الآخر الاسم، ونقف ثلاثة ورابعنا القرد في حيرة من أمر المدينة لا ندري لها اسمًا، وبعدها يغادرنا الشخص، ونمضي نحن في البحث عن غيره؛ لنسأله فتكون إجابته مزيدًا من الحيرة التي يضعنا فيها ويضع نفسه فيها للمرة الأولى ويقول في دهشة عجيبة: "لكن عمري ما سألت نفسي من قبل إيه اسم المدينة"، ويغادر متسائلًا في حيرة بادية حتى يكاد يتعثر في حجر فيسقط على الأرض، وحين طال تكرار الأمر قال الإسكندري: "لنعُد من حيث جئنا" وبالفعل عدنا ووجدنا القارب في الماء مكانه، وعدنا حتى حانت ساعة الظهيرة، ولما رجعنا وجد الأهل يسألون عنا، وقد أتعبهم البحث والسؤال؛ فأخبرهم الإسكندري أننا ذهبنا إلى صيد صعب وطويل ولم نظفر بشيء.

عدت للدار وحاولت النوم. ألقيت برأسي على الشلتة وأغمضت عينيَّ، لكني لم أستطع النوم، ساعتها ذهبت إلى صديقي -أبا الفتح الإسكندري- لعله يفرج عني ما بي؛ فأخبرني أنه أيضًا لا يستطيع النوم، وأن الأرق يأكل جفنيه كلما أغلقهما، وقام أشعل نيرانًا في حطب وقش حتى اشتدت، وبدأ في صنع القهوة، ثم وضع فيها بعض الأفيون، وناولني القدح وكان ذا رائحة تشعل تلابيب المخ، وتنعش العين فتصير كأنها تكاد تخرج من جمجمتك، شربناها على مهل وحين انتهينا، نهض فنهضت خلفه، عرفت أنها حتمًا جنازة أخرى، وحين مر المشهد التحقنا بهم، كانت جنازة غريبة تسير في صمت، والجميع يرفعون سباباتهم في الهواء، وحين اقتربنا من أشجار البرتقال، شعرت ببرودة تسري في جسدي، كنت على دراية أن مقابرهم هناك، لكن حين دخلنا عرفت أن الأجمة هي نفسها المقابر؛ فالأشخاص يُدفنون تحت الأشجار، لسبب ما.

فكانوا يحفرون أسفل شجرة ويجهزون التربة لاستقبال جسد جديد، ثم يضعون الجسد الملفوف في ورق عجيب، عوضًا عن الكفن القماشي، وبعد ذلك يردمونه بالتراب، وحين ينتهون يخرجون واحدًا تلو الآخر بجلابيبهم البيضاء قاطفين ثمرة برتقال نضرة.

حين جاء الدور عليَّ لأقطف الثمرة من إحدى الأشجار، شعرت بغثيان؛ فالأجساد المتعفنة هي سماد هذه الأشجار، وحين رأى الإسكندري تلك الحيرة والاشمئزاز على وجهي اقترب مني، وقال: تقبل ما يعطيه الموت لك؛ فأخذت البرتقالة، لكني لم أذقها. وما إن عدنا حتى سألته عمن يزرع البرتقال والنباتات هنا، فأخبرني أن المكان هنا للحصاد فقط، وجلسنا في الدار حتى حان المساء.

أدركنا الليل وسيطر على المكان، ونادى الإسكندري القرد، فجاء لنا بحمارين لهما عيون ضخمة وسروج مخملية غريبة يجرهما كلبان أليفان، فنهضنا متثاقلين، ركب القرد وأركبني القروي خلف القرد، وركب هو الآخر فوق حماره وانطلقنا إلى الترعة، وإذ وصلنا؛ نزلنا عن الحمارين، وقام القرد بسحبهما، ثم ربطهما في جذع الشجرة، وأخرج من جانب السرج بعض الشموع الصغيرة أوقدها بنار صنعها من الحطب في سرعة، ثم اتجهنا نحو الزورق نحمل الشموع المشتعلة وركبناه وصار القرد يجدف بنا، حتى كان القمر قد توسط السماء، فوجدنا بقعة من الضوء تتحرك نحونا وظللنا ننتظر حتى حاذتنا فكانت المركب التي أقلتنا في الأمس وبها ثلاثتنا، دققت النظر في ملابسهم فكانت كملابسنا، وفي وجوههم فكانت كوجوهنا، فسلمنا عليهم، وأخبرونا مجددًا بأن أسماءهم هي نفسها أسماؤنا، ولم أرتَب في أمرهم هذه المرة، وركبنا معهم وصرنا نبحر إلى أن طلع الصباح، فلما وصلنا إلى الشاطئ الآخر كان

الجوع قد شق طريقه إلى بطوننا، فاستأذناهم في الطعام؛ فذهبوا بنا إلى أحد المنازل وألقوا التحية على عمال الغاز العالقين فوق المنازل، فلم يردوا من شدة انشغالهم بالعمل، وصعدنا إلى الطابق الثالث، طرقوا على الباب ثلاثًا حتى فتحت لنا امرأة في مقتبل العمر، ثم تراجعت إلى الخلف واختفت من مجال البصر، أدخلونا إلى حجرة الاستقبال، كانت واسعة ذات كراسي عالية، أخذنا مواضعنا حول السفرة، وقبل أن نبدأ وضعوا الطعام في صحون بلاستيكية للقردين، وبدأ القردان في الأكل، أحدهما مقابل للآخر، كذلك جلسنا، فكان كل واحد منا مواجهًا لنفسه، وبدأنا جميعًا في الأكل بالمعدل نفسه وبالحركات نفسها، حتى صوت ارتطام الملاعق في الأفواه كان واحدًا، وحين حاولت أن أمد يدي إلى طبق من الأرز أمامي أخطأت في الطبق فمدت يدي إلى طبق شبيهي؛ فوقع لوح من الزجاج على الأرض وتهشم وتطايرت أجزاؤه في كل مكان، انتفضنا من الصدمة، وأخذنا نبحث عنهم فلم نجدهم كأنهم تبخروا فجأة، كذلك بحثنا عن المرأة والقرد الآخر، كلهم كانوا قد اختفوا حين سطع نور الشمس من الشباك، ولم يبقَ سوى شظايا الزجاج، بتنا في المنزل، ولم نعد إلى القرية العالقة في الضفة الثانية.

أخذ نفسا طويلًا ورمى عقب السيجارة: "كنا نتناقش طوال الليل حول ماهية المدينة التي علقنا بها".

أبدى الإسكندري رغبته في أن يمضي بقية حياته في تلك المدينة التي يعمل بها عمال الغاز بهمة منذ أن بدأ الزمان، كأنهم يحملون هموم العالم على أكتافهم ويسيرون أموره بعملهم هذا ومن دونهم يضيع كل شيء.

وبعد انقضاء الليل وقد سهروا يتسامرون على الأسرة دون أن ينتابهم نعاس أو أدنى رغبة في النوم، نهض ابن هشام وقد عاونه الإسكندري على تنظيف بقايا الزجاج من الأرض، ثم خلع كل واحد منهما ملابسه ليستحموا واحدًا بعد الآخر، ويغير ملابسه بشكل عفوي من الدولاب الموضوع في حجرة كل واحد، وبدأت الحياة تسير

أدرك الإسكندري أنه يعمل في تجارة السجاد فذهب إلى تجارته في دكانه الذي يقع تحت البيت، كذلك ابن هشام كان رفقته.

ولما وصلنا لهذا الجزء أخبرني الرجل: "ولم أكن أدري حقًّا هل أعلم من التجارة شيئًا أو لا، لكني تركت الأمور تسير كما تريد هي أن تسير".

وقد صارت الأمور معهم على أحسن حال؛ فقد اندمجوا في حياتهم الجديدة واستغرقوا فيها، نسي الإسكندري أن له امرأة تنتظره في داره منذ أيام، وكذلك ابن هشام الذي لا يدري أحقًّا له أم وقد تركها ليلة دفنها، وكان قد أخبرني بذلك: "كأن كل ما كنت أتذكره كان قد حدث في ماضٍ

بعيد لا ينتمي إليَّ، وأردت أن أنفض عني كل ذلك الماضي بغير إرادة. أما النوم فقد نسيته من جمله ما نسيته، كان الإسكندري على دراية بما يفعل كأنه خطط لكل شيء، كان يعرف حتمًا أمورًا كثيرة عن تلك المدينة، فذات نهار جاءني وقادني إلى حارة ضيقة تفضي إلى ربوة فوقها مسجد يُدعى الجامع الكبير، دخلنا وصلينا فيه العصر وبعد الصلاة تركني الإسكندري أغسل وجهي، وذهب في الجهة الأخرى حول صحن المسجد الدائري، كأنه يطمئن على شيء ثم عاد إليَّ، وقال في صوت هادئ: "لم يحن الوقت بعد".

وفي الليل ذهبت وحدي إلى مقهى بجوار المحطة، وطلبت قهوة، وحين عدت إلى الشقة لم أجد الإسكندري، نزلت من الشقة، وتخبطت في الطرق حتى وصلت إلى الترعة، ووجدت هناك عمال الغاز بأرديتهم نفسها، لكن داخل كراكات صفراء ضخمة يعملون في صمت على ضفتي الترعة، حيث يجرفونها ويوسعونها ركبت الزورق الصغير، كنت أجدف متبعًا المجرى، وألمح بين بعد كل مسافة عددًا كبيرًا من الكراكات، ويرتعد قلبي؛ فهم لا يرون المركب الصغير، وربما يقلبوني في الماء بداخله، لكن في النهاية عدت بالزورق إلى أرضنا.

حين وصلت وجدت الليل لا يزال جاثمًا فوق القرية، والناس هناك أمام الشجرة في انتظاري، والقروي أمامهم،

ولم أكن أدري من أنا ومن هو فناديته يا أبا الفتح فلم يجبني، وظللت أنادي حتى ظنوا أن بي سوءًا، أو أني فقدت أحدهم، كانت رأسي تشتعل من الحيرة، غمز لي الرجل الذي لم أعد أعرف له الآن اسمًا، فلم أفهم مقصده وسألني أمامهم: "ما قصتك وقصة أبي الفتح ذاك؟".

فأخبرته بالحكاية كلها أمامهم؛ فضحك حتى استلقى على قفاه، وأخذني إلى الترعة التي كنت أظنها بحرًا، فإذا بها من الضآلة بحيث لا تتسع لزورقين متجاورين، ولمحت على مد البصر الكراكات الصفراء بعمال الغاز، فجلست تحت الشجرة أحاول اكتشاف حقيقة ما حدث، وحين غادر الناس وتركونا، وقبل أن أسأله عن حقيقة الكراكات وعمال الغاز الذين ينتقلون من مهنة إلى أخرى؛ قال القروي: "يجب أن تمسك لسانك"، ورحل.

كان الإسكندري قد اصطفى ابن هشام وزكاه عند شيخ القرية وكبيرهم الذي قبله كأحد أبنائه، لم يكن يدري كم مكث هناك، ولم يستطع أن يتقدم في طريقه نحو ماضيه الذي تلاشى من أمامه.

ولما وصل إلى هنا تنحنح وقال: "لم أكن أصدق أني قد جئتهم عبر طريق طويل قاطعًا كل تلك المسافة حتى أصل إليهم صدفة، لكن إن أعدنا النظر في الأمر يمكنك أن ترى أن وجودهم في الأساس في ذلك المكان محض صدفة أخرى،

فإما أن العالم آية في الترتيب، أو أن الصدفة تضرب جذورها في أعماق الواقع، وحينها لا أكون سوى محض صورة أخرى لتلك الصدفة، هذا ما شعرت به، وربما لو كنت وحيدًا لكان وقع الأمر على أشد، لكن وماذا عساه يفيد كل ذلك وأنا معهم؟ هذا ما قلته لنفسي؛ فأنا أستطيع تقبل حقيقتي الخرافية، إن كان أحدهم يشاركني في تلك الحقيقة".

تحدث كفيلسوف، وكان كل ذلك يُعد كثيرًا على رأسي، ولكنه تابع كمن يثق أنه يحاور ندًّا له: "فهذا ما أظنه، فإن تقابل شخصان على المستوى نفسه من الخرافة والغرائبية؛ أفلن يكونا واقعيين بالقدر الكافي الذي يجعلهما يتناسيان حقيقتهما الخرافية؟ وربما سيكون علينا -نحن الخارجين على هذا الإطار الخرافي- أن نكف عن اعتبارهما غير حقيقيين!".

كاد رأسي ينفجر، لكني أدركت حقيقة كلامه التي أفزعتني فاعتدلت في جلستي مفكرًا، لو أنه ليس واقعيًّا ومجرد طيف يتلاعب بالواقع ألا يعني ذلك أننا على المستوى نفسه لأننا نتفاهم؟ وبدلًا من أن أرتاب في واقعيتي فذلك بدا ضربًا من العبث؛ فأنا أنا ولي تاريخ قديم يستحيل أن يكون لم يحدث، بدلًا من ذلك آمنت بأنه مثلي تمامًا من لحم ودم.

أخذ يمضي في حديثه والقطار يمضي إلى مستقر هو وحده من يعلمه، فإن كنا أطيافًا؛ فلا بُدَّ أنه ذاهب بنا إلى

أعماق الجحيم، وانتزعني من أفكاري: "كان كل شيء مستقرًّا إلى أن ظهر ذلك القزم بشكل أوضح في حياتي". وبدا كأنه على وشك سرد حكاية أخرى:

"جاءني، لم أشعر به، فقط وجدته أمامي كشبح انبثق فجأة، أطرافه القصيرة بدت غريبة عنه، وبدا مفككًا، كأنه جمع أعضاءه من مكان ما، أنفه ضخم ورأسه محلوق، وله بطن عظيمة، يمشي ويقف بعد كل خطوتين، بشكل غريب وحين شاهدني أتأمله ابتسم في هدوء وسألني: "ألا تعرفني؟".

فقلت "لا".

قال: "أنا أعرفك جيدًا".

سألته في استنكار: "بالطبع أخبروك عني؟".

هز رأسه نافيًا، تأملته مجددًا كان مظهره يثير فيَّ مشاعر مختلفة، حزن أو أسى أو ما يشبههما، وكانت نفسي تخبرني بما يشبه الهمس أني أعرفه، لكني لم أستطع كبح رغبتي في أن أسأله "من أنت؟".

فأجاب "أنا صاحب أقدام لا وقع لها".

ثم تركني تحت الشجرة ورحل.

في المساء سألت صديقي الإسكندري عنه: "قزم غريب، أول مرة أراه هنا، أتعرف عنه أي شيء؟".

ضيق عينيه قليلًا وصمت دقيقة، ثم قال: "نعم أعرفه، هو الموكل بدفن الموتى، ماذا قالك لك؟".

سألت نفسي، كيف عرف أنه قال لي شيئًا؟ وخرجت افتراضات كثيرة من رأسي، كأنه مثلًا يقابل الجميع ولا بُدَّ أن يقول لهم شيئًا، أو ربما هو موكل بقول شيء لي بالتحديد، في النهاية أخبرته: "لم يقل غير أنه صاحب أقدام لا وقع لها".

رفع رأسه وكان مقرفصًا على الأرض يرسم بعصاه على الطين، وقال: "الأقدام التي تمشي بالموت لا وقع لها".

كانت إجابة غير متوقعة، ظننته سيضحك مثلًا، لكن تبين أن هناك أمرًا ما بالغ الأهمية بخصوص القزم، سألته: "من وكله بدفن الموتى؟".

فقال: "لا أحد، كل شخص هنا وجد نفسه يفعل ما يفعله، الأشياء والأشخاص هنا نموا بشكل طبيعي، ولم يتدخل أحد في الأمر".

سألته مجددًا: "لِمَ تموتون كثيرًا؟ ولِمَ الدفن هنا غريب؟ اعذرني في السؤال، لكني منذ جئت هنا مشيت في ألف جنازة!".

كان صامتًا كمقبرة، ونظر إليَّ في حزن بعدما توقف عن الرسم بالعصا: "هذه حكايتك وحدك".

ثم تابع: "حعمل قهوة، أعمل لك واحدة؟".

هززت رأسي، وجلست مكانه، أفكر في ما يقصده، لكني لم أصل لشيء. حاولت إراحة رأسي من التفكير. منذ ذهبت هناك وأنا أتعب رأسي، في حين أن من المفترض أن أرخي لجام العقل، وأن أترك الأمور تسير كما ينبغي لها، لكن رأسي لم يهدأ، كان منشغلًا طيلة الوقت بما قد يحدث".

لما عاد الإسكندري وجده على وشك النوم، ولما رآه على تلك الحالة فزع، أنهضه أعطاه القهوة، وحثه على أن يشربها من فوره ففعل، وفجأة طار النعاس، جلسا يتحادثان في أمور شتى، منذ أن جاء والسكندري يكرمه، يحبه ويخلص في محبته، والغريب أنه لا ينتظر ما يعود عليه من إكرامه، نمت بينهما صلة وثيقة وألفة، أحبا بعضهما بصدق، واعتبرا أنفسه إخوة من الدم نفسه، كلما وقع ابن هشام في مأزق ساعده، يمضيان الليل معًا يحكي له الإسكندري عن امرأته عما يفعله معها، وعما لا يستطيع أن يفعله، وأن ذكره لم ينتصب منذ سنوات. كيف يهينه هذا أمامها، وكيف أصبح الجلوس معها أمرًا لا يُحتمل بسبب نظراتها، لذلك يمضي الليل وحده في الخلاء. ولابن هشام يحكي همومه بصدق، يحكي له أيضًا عن أخته، عن الذين ينتظرون موته حتى ينهشوا لحمها، وكيف يود أن يطمئن عليها قبل مماته، وكيف يداهمه الشعور الحزين بالرحيل، فمنذ أن جاء ابن هشام، وشعور غريب يطوق الإسكندري، أن مهمته ستنتهي قريبًا، أن نبتته جفت وشاخت وحان وقت انتزاعها.

ويحكي له ابن هشام عن ذاكرة امتلكها خارج هذا العالم الذي لا ينام، يخبره أنها ما تورطه هنا، يخبره أيضًا بصوت متسائل أنه منذ أن جاء وهو يشعر أنه في يوم طويل: "حين لا تنام تبدو الحياة كأنها يوم واحد طويل، وهذا ما أشعر به".

يخبره الإسكندري أن وجوده ووجودهم هنا مرتبط بالنوم، وهذا الرابط واللغز لا يعرف حله سوى القزم، لكن شعورًا داخليًّا يخبره بأمر ما، وهذا ما قاله له: "شيء ما بداخلي يقول لي يا ابن هشام، إنك حين تتذكر سترحل؛ لأنك ستذهب بعيدًا عن هنا، وحين تنام أنت سنموت نحن".

حين ينام ستهدأ الأفكار وتتلاشى؛ لذلك يخشى الجميع من نومه، تتذكر ذلك جيدًا، تتذكر كيف أبقيت عينيك مفتوحتين ولم تغلقهما خشية أن تتلاشى الغفلة التي كانت تشملك. وأنت تعرف جيدًا، أنك حين تنام، ستهرب منك الأشياء التي تخشى هروبها؛ لذلك لم تضم جفونك حتى اليوم أبدًا، ومع ذلك هرب ما خشيت أن يهرب.

أما هم؛ فيواصلون الاستيقاظ مؤازرة له حتى باتوا يخشون النوم.

وتعود رؤياك لصوت يوسف، يتلو حكايته كأنه لم ينتهِ إلا ليبدأ.

"وأخبره الإسكندري أن الجميع هنا يعيشون ظاهريًّا، وبشكل مؤقت. الجميع ينظرون للقزم بمهابة؛ لأنه وحده

يعرف الساعة التي يجب أن يواري فيها أحدهم في الأجمة تحت ظل البرتقال.

وبينما يتظاهرون في الحياة، ينقبون داخل أنفسهم عن سبب وجودهم الكبير، يحفرون خلف الأسئلة الطويلة رغم وجودهم المؤقت، ورغم أنهم مجرد أفكار، لكن لعلهم ينتظرون الخلاص. وهذا ما قاله الإسكندري وقاله لي ابن هشام وهو يقلد صوته: "ربما أنت خلاصهم، كان يقصدني".

كنت مستغربًا من تدفق حكيه، وبدا أن كل ما حدث معنا مخبأ سيظهر قريبًا، لكني شعرت في تلك اللحظة تحديدًا بشيء غريب، أني في حلم بالفعل هذه تداعيات حلم لا بُدَّ سينتهي، أن كل ما يحدث يا عمر مجرد حلم طويل، وأني حتمًا سأنهض منه، لكني وجدته ما يزال يصر على الحكي كأنه يمسك طرفي الحلم يمنعهما من الانفتاق، وكان يقول: "فهمت لِمَ حين علموا بمجيئي قاموا لاستقبالي بكل ذلك الفرح، رغم أني سأعذبهم بوجودي؛ فوجودي يعني أنهم لن يناموا أبدًا، لكن وجودي يعني أيضًا أني كلما تذكرت شيئًا سيرحل أحدهم، وهذا يعني أني حين جئت ووجدت جنازة كان لأني لم أنسَ؛ بل لأني بالتأكيد تذكرت شيئًا، والأشياء التي ظننت أني نسيتها كأمي ودفنها وعالمي تلك ليست المواضيع الأهم، لكنها أمور كان يجب أن أنساها لفترة حتى أتذكر الحقائق الجوهرية، ربما كان عليَّ أن أحزن لأن ذكرياتي

هي المسئولة عن موت أحدهم، وهذا ما قاله لي القزم بعد ذلك بأيام، لكنه أيضًا أخبرني أنهم هم من يتوقون للموت بأنفسهم، لذلك يعذبون أنفسهم بالسهر معك، الرحيل يعني ذهاب إلى أماكن أكثر رحابة، وقد أخبرني الإسكندري أنهم ينتظرون أن أتذكر لأني الوحيد الذي يعرف سبيل الخروج، حينها توقانهم للموت والخروج يتحقق".

سأخبرك شيئًا الحياة تشبه كثيرًا الاستيقاظ الطويل، وحين تبدأ في رؤيتها هكذا يتغير موقفك منها تمام، كما تتغير رؤيتك للموت أيضًا، على أنه شيء بغيض هو راحة، راحة محببة وضرورية للغاية. سأخبرك بشيء آخر يا عمر، فلسفة ذلك الرجل في الحقيقة ترضيني، لا أنتظر منك ردًّا بالطبع، المهم أنك تستمتع، لكني أقول إنه وجد حكمته من تلك الرحلة التي حدثت بمحض الصدفة، أو لعله شيء كُتب على جبينه منذ الأزل، وهذا ما أؤمن به، وهذا ما أخبرني أيضًا أنه قد آمن به، أخبرني أنه حين باح له الإسكندري بكل ذلك تعاطف معه بشدة، ومع كل القبيلة، وزادت حيرته بشأن نفسه، وبشأنهم وأخبره: "أنا لا أعرف حقيقة أي من هذا، لكني أحاول التذكر جاهدًا، هناك يقين ينبض داخلي يقول لي إني سأتذكر قريبًا". الموت كخروج أو بوابة هي فكرة مصرية، أعرف كتابًا رائعًا يُسمى الخروج للنهار، في البداية ظننته كتابًا عن الأمل، لكن اتضح أنه كتاب الموتى عند أجدادنا، تصور!

المهم، المهم، استمرت الحكاية، بالطبع استمرت لأنها يجب أن تنتهي بشكل أو بآخر؛ ففي المساء بينما كان مستلقيًا على ظهره يراقب النجوم، يحاول أن يربط بعضها ببعض بخيوط خفية، يحاول أن يغوص في ماضيه وذاكرته لعله يصل إلى ما يبتغيه فيريح الناس هنا من صحوهم الدائم، كان صديقه الإسكندري قد ذهب مبكرًا ليجلس مع رفاقه، وتركه في خلوته وهنا أخبرني أن القزم جاءه وقطع عليه تلك الخلوة: "وجدته أمامي ينظر مباشرة في عينيَّ، نهضت مضطربًا، اعتدلت، لم أشعر بقدومه هذه المرة أيضًا، ونبع داخلي إحساس بالرعب من كونه لا يملك صوتًا لخطواته، حين اعتدلت ونظرت إليه، أشار إليَّ أن أنهض وأتبعه؛ فنهضت ومشيت خلفه، وأخبرني بالسر الذي أخبرته لك، دُهشت حينها، وظللت أرتجف حتى ذهبنا حيث جلس الرجال، فجلست رفقتهم وظل القزم واقفًا، ثم ناولنا صبي صغير قدحَيْ قهوة.

نظرت إليهم بتأنٍّ، هذه تضحية، لأجلهم تلوت صلاة من صنع قلبي "ربي أرح، ربي ذكرني" وشربت، ودقت طبول الانتباه في رأسي، وجلس الرجال يتحدثون. لم أشارك في الحديث. راقبتهم في صمت، منشغلًا بما ينتظرون مني أن أفعله من أجلهم. فهم يجتمعون هنا كل ليلة يسلون وحدتهم، يكافحون عناء الاستيقاظ المتواصل، هم لا يستطيعون النوم

بسببي، هذا ما أدركته، كان يجب أن أخلصهم من سهرهم وسهدهم، وتحولت أفكاري بشكل عجيب نحو هناء، حينها اشتعل قلبي بصورتها الغارقة في صمت وحلم، تتغنج في مشيتها لتفسد حياء القرية الهادئة، نظرت إلى النار حسبتها قلبي المشتعل، شعرت بخلوة رائقة كأن الجميع انفضوا وتركوني أتابع النار وأتأوه، بت في العراء وحدي ولا صورة في رأسي سوى أنفي يحتك بأنف هناء وشفتاي تعتصران شفتاها، وصدري يداعب نهديها. تأوهت من العزلة والعذاب، ورغبت في النهوض لأذهب إليها في مخدعها لكن أطرافي كانت قد تصلبت، كان ذلك قبل أن أعرف أنها ستكون لي بعدها بيوم واحد".

أول مرة رآها كانت حين يذهب تحت الشجرة على عادته، كان يلقي ببصره ناحية الجانب الغربي، حيث أشجار البرتقال. ترد الترعة لتملأ دلوها منه، وحينها تفاجأت بوجوده، تركت الدلو وهربت مضطربة، أمسك الدلو وجرى خلفها، يناديها لكنها لم تلتفت من الخجل، لا يدري لِمَ جاءته، لكنها كالرؤيا لا تأتي وفق ميعاد أو غرض. عاد إلى جلسته يحمل الدلو، وعيناها مطبوعة في خياله، لم تغادره أبدًا.

انتبه القزم فوجد ابن هشام هائمًا يتأمل النار وسط فرقعة الخشب المشتعل، فنهض وأخذ يسير إليه حتى دنا منه وأخذه من يده كطفل بلا قوة، كان سكران من شدة الهيام أو القهوة

التي خُلطت بشيء ما بالتأكيد، سحله القزم وسحبه ليقوده إلى الترعة، ولما انتهى الحكي إلى هنا تأملني قليلًا وقال: "لن تصدق، كنت أرى كل ذلك كأنه خارج مني، أحلق وأشاهد قزمًا يجر رجلًا يشبهني، حاولت التلويح إلى الآخر الذي هو أنا، فلوَّح إليَّ، فدق نبض قلبي بعنف، ثم أسقطني القزم في القارب، وأشعل شموعًا صغيرة وضعها على حوافه وأخذ يجدف".

ذهب به حيث الماء لم تعد له نهاية، كانت الشموع الموقدة تتلألأ في ظلمة الليل جاعلة حول رأس كليهما هالة من الضوء المقدس، وهنا قال: "أفقت شيئًا فشيئًا، وكانت ومضة من الضوء تشرف مقبلة، اجتاحني إحساس هائل بأن رأسي يدور والعالم معه يدور في استسلام، فاستسلمت لسيل الدوران، قفزت من قارب إلى آخر، واستقبلنا الضيفان، ومضيا بنا إلى حيث لا نعلم، القزمان يجدفان في تواتر، وتتتابع ضربات المجدافين في المياه".

كان القمر فضيًّا لا يبرح يتبعهم إلى حيث يذهبون، وبعد ساعات في جوف الليل خرجوا، كانت الماء بلورية ثم تتكسر وتصير زرقاء وتختلط على حواف البحيرة بأشجار غريبة وورود بنفسجية زاهية، شجيرات تتدلى في المياه ونباتات تمد فروعها لتتشابك فيما بينها متلاحمة: "وصلنا إلى جسر حديدي صدئ كان معدنيًّا ويلمع أكثر من اللازم، صعدنا

ست درجات وعبرنا الجسر إلى الضفة الأخرى، سمعت القزمين يتحدثان أمامي حول أننا وصلنا معدية أبي غالب في أشمون. الضباب كثيف والندى متراكم على المنازل منذ الأمس وجزيرة رطبة تقبع في الظلمة، إحساس الرطوبة ذلك كان معاكسًا لإحساس الجفاف الدائم في صدري. سرنا طوال ساعة تقريبًا على طريق أسفلتي بين حدائق تتبرعم فيها الزهور، رائحة الصباح كانت مزيجًا بين نعناع تعفن وقلق منبعث مني. وفي أثناء المسير تعبت قدماي، وقد تأخرت عنهم، فراودتني فكرة الهرب والاختباء في إحدى الحدائق إلى الأبد أعيش فيها كما تعيش اليرقات أو العصافير، ثم تساءلت لِمَ أتبعهم بهذا الإخلاص؟!

ولم أصل إلى إجابة.

مضيت وراءهم متشبثًا في حبال صمتهم الدائم، حتى خرجت أمامنا أولى السيارات البيضاء الكبيرة، ثم تلتها الثانية والثالثة، وبدأ سيل السيارات البيضاء يتدفق بلا توقف، الطريق طويل بلا نهاية، لكننا وصلنا. في النهاية دائمًا نصل".

كان عمال الغاز ما زالوا فوق السقالات يطلون المواسير بطلاء أبيض اللون في صمت قاسٍ، عرفت أنها المدينة نفسها التي كنت أزورها مع الإسكندري، ألقينا التحية على العمال، لكنهم لم يردوا، ثم دلف أربعتهم إلى حارة الجامع الكبير، ومضوا يشقون طريقهم في حارة لا تتسع لأربعتهم،

الناس نيام وعقله معهم أما قلبه فلن يستيقظ أبدًا حتى يرى هناء، وصلوا إلى الجامع الكبير وكان نهاية الطريق، بات الآن يعرف إلى أين يقصدون، كان المسجد يرتفع على ربوة تعلو مترين عن الأرض فصعدوها حتى وصلوا إلى صحنه الدائري، كان من الحجر الأبيض، بناء قديم شبه أسطوري يطل على مقام صغير لولي من أولياء الله: "قصدنا ذلك المقام ودخلنا في حرمه إلى جانب القبر المزين، وارتاح أربعتنا، كنت من التعب بحيث لم أسأل عن أي شيء آخر، ولما قلبت بصري في المكان رأيت اسم صاحب المقام؛ فأخذت أبكي إلى أن احترقت عيوني، فالمقام كان للشريف الراضي أبي الفتح الإسكندري، تجمدت رأسي، اجتاحني حزن عميق، كأن شيئًا بداخلي انفطر، لم أتصور أن هذا الرجل سيموت حقًّا، كم أحببته!".

انتشلوه مساء من سطوة أفكاره على صوتهم يأكلون، فأكل معهم وبعدما أكلوا، خرجوا من المقام، وقبل أن يخرج ابن هشام طبع قبلة على قبر صديقه، وأقسم أن يعوده دائمًا.

خرجوا أخيرًا إلى صحن المسجد، وكان أول ما فعله ابن هشام هو النظر إلى السماء ليجد القمر كما اعتاده كاملًا في استدارته، وهنا أخبرني: "استدرنا حول مدخل المصلى حتى صرنا في ظهر البناء، وهناك أشار أحد القزمان إلى باب أحمر صغير، ففتحه بمفتاح أخرجه من جيبه، ودخلنا

من الباب، فأشعل القزم الآخر القناديل المعلقة على جانبي السلم الطويل الذي يبدو أنه متجه إلى جوف الأرض. أخذنا نهبط السلم، وأخذت أعد الدرجات حتى وصلت إلى رقم يتجاوز الألف، هناك أشعل القزم آخر قنديل، فأضاء الحجرة الطويلة؛ فوقعت عيناي على شيء متكئ على حجر سرت رعدة طويلة في جسدي. كان قرد الإسكندري الذي اسمه بديع الزمان واقفًا أمامي على مذبح وأمامه كتاب ضخم.

مجلد بتجليد أخضر اللون، يخرج ضوء خافت من صفحاته، وبجانبه صحن ضخم فوقه ما يشبه هرمًا من البرتقال، شعرت أني مشدود ناحية الكتاب، حاولت أن أقرأ ما كُتب عليه بحروف مذهبه، وكانت ثلاث كلمات متداخلة، حاولت فك تشابكها فاتضحت أمامي "في لوح محفوظ" شعرت بصوتي ينطق الجملة رغمًا عني، شعرت بأني أقف داخلي، في مكان قصي تمام، نحن الآن داخلي، القزمان وشخص يشبهني وقرد ملعون، يقفون في حجرة غامضة داخل روحي، الهواء بالأسفل كثيف لأقصى درجة، ووقع الجملة في رأسي كان ثقيلًا.

شعرت بالاختناق، لكن حينها قال القرد: "أحضروا ابن الزانية هذا"، وأشار إليَّ. كنت أنا والآخر شبيهي نقف خلف بعضنا بعضًا، فاقترب مني القزم وأخذ برأسي ووضعها على المذبح الذي كان من الحجر القاسي، فتحوا فمي بصعوبة

وقسوة وضعوا البرتقال داخله واختنقت وصِحْتُ، لكن أحدًا لم ينتبه. وفجأة عاد كل شيء كمشهد يتكرر، لأجدني ما زلت واقفًا أقبل نعش صديقي، استدرت فوجدتهم حولي يضحكون كأني كنت أرى حلمًا أو كابوسًا، وخرجنا في جوف الليل إلى صحن المسجد واستدرنا حول المصلى، ودلفنا من باب خلفي، به سلم طويل. هذه المرة حين وقفت في الغرفة كنت أعلم علم اليقين أني ما زلت في أعماق روحي حيث لا مركز لأي شيء. وقفت خلف شبيهي، وحين نطق القرد جاء القزم ووضع رقبته على المذبح، ثم وضع البرتقال في فمه حتى اختنق ومات، ونطق القرد بعبارات غريبة، وحين سمع صوت المؤذن للفجر دوت صرخة منه، وتلاشى هو والجسد الملقى على الأرض، وسرعان ما أخذ القزمان الكتاب وأمراني أن أتبعهما، خرجنا في الصباح، وذهبنا من حيث جئنا، شعرت أن شيئًا مني قد مات للأبد مع شبيهي الذي قد مات واختفى".

اتجه ثلاثتهم إلى الطريق الأسفلتي مع الضباب، وهبطوا إلى قاربهم عائدين بالكتاب الكبير. ولما وصلوا إلى قريتهم كانت الشمس قد تربعت في السماء، ذهب أحد القزمين إلى جنة البرتقال في الغرب، وظل ابن هشام والقزم الآخر عند الترعة حتى جاءهم الإسكندري يبحث عن ابن هشام. ولما وجده جالسًا تحت الشجرة قرب الترعة.

قال له: "بحثت عنك في كل ما كان، أين كنت منذ يومين؟".

فأخبره بالحكاية من أولها إلى آخرها فاندهش، وقال بنبرة ملؤها الأسى: "قد جاء موعد الكتاب" كان واجمًا. وهذا ما قاله الرجل في الحلم بالضبط: "شعرت كأنه انفصل عن ذاته، ثم رفع رأسه ناحيتي ونظر إليَّ بعيون آملة، وابتسم ابتسامة صغيرة، حاول أن يداري دموعه عانقني، وقال "تتزوج هناء" حسبت أن كل هذا الوجد لأنه سيودعها".

حينها توقف الرجل الجالس أمامي دقيقة عن الكلام، ابتلع ريقه، وقال ببطء: "أعتقد أنه قد آن الأوان أن تعرف قصتي مع هناء، هي قصة صغيرة لكنها تختزل حياة بأكملها". توقف ثانيًا، مسح شعر رأسه للخلف بيده اليمنى في حركة قلقة وقال: "اسمع، هناء هذه، هي الأرض. تعرف الجفاف؟ بالطبع تعرفه، وإن كنت تعرفه؛ فهذا يعني أنك تعرف الرطوبة، الخصوبة وكل شيء يحتضن المرء، هذه هناء. حكيت لك أن أول مرة رأيتها فيها كانت عند الشجرة، هذا حقيقي تمامًا، شعرت بالعطش لحظتها، كل شيء بدا مختلفًا حينها، كنت أود الركض وراءها وإمساكها من يدها، تعجبت بادئ الأمر من أن تنجب الأرض الطينية شيئًا بمثل هذه الرقة والوداعة، فتاة تتغنج في مشية ظريفة، وأنا رجل وحيد، تفهم؟ رجل وحيد بلا امرأة، يستحضر صورتها في الليل ليشبع شهوته

بيده، وهذا ما حدث، لا تبتسم كلنا نفعلها هي طبيعة إنسانية، لكن هل انتهى الأمر بهناء لتكون صورة أستحضرها فقط عند لحظات كتلك؟ لا، لم يكن الأمر بهذه الصورة أبدًا، ربما يفعل المرء كل شيء جنوني في الحياة، يستمني مئات المرات يضاجع ألف امرأة، يشعر برغبة رهيبة في إفراغ أشيائه في حين أن كل ما يريده ليس الإفراغ بل الامتلاء، السهر والليل يجعلانك أشبه بوعاء فارغ، تسمع صدى جروحك حين يرتطم الهواء بشقوق قلبك. تحتاج لشيء يملؤك وهذا ما يفعله الحب، وهذا ما فعلته هناء، وجدتني أشعر بأن شيئًا أخذ يُضاف إليَّ، صوت صفير روحي الخاوية ما عاد مدويًا.

ورأيتها ثاني مرة في بيت أخيها، تحضر الطعام، وثالث مرة تلصصت عليها تستحم في الترعة في الليل البهيم، والقرد يحرسها حاملًا الشموع لينير لها عتمة الماء، لحسن الحظ لم يرني، أو لعله رآني، لكن لا يهم، جسد هناء لحم منسدل، يختفي تحت طبقات شتى من الأغطية حتى لا تفسده أشعة الشمس، وحين خرجت من الماء بدت كحورية لفظتها المياه بالخطأ، اشتعل قلبي بالرطوبة، ولم تتحرك شهوتي، لكني شعرت بالامتلاء واكتفيت بهذا القدر، رحلت قبل أن يلاحظني أي منهما. واستلقيت في العراء مشاهدًا النجوم أربط بينها لأحيك جسدها حتى باتت أمامي حية، رغبت أن أتمزق، وأصير غبارًا؛ كي ألتصق بها، هو الحب ولا أعرف

كيف يمكن تعريفه بكلام غير هذا. شيء واحد نغص عليَّ صفو تفكيري الرائق، هل في هذا الحب وهذه الرغبة خيانة لصديقي الإسكندري؟ لم أحسم أمري. الحب هو الحب، ولا حاكم فوق قلوبنا. والإسكندري رجل يكرمني ويعزني يفهمني، وبالطبع لو كنت حكيت له كان سيتفهمني، لكني خشيت أن أرى منه وجهًا لم أعتد أن أراه، وأنا رجل وحيد بلا أصدقاء، كنت أقول في نفسي: "قل له يابن هشام، أخبره أنك تود أن يعانقك أحدهم أن يدفئك وأن يشعرك بالألفة، أنت تريد أن تشعر أنك تنتمي لشيء ما، لكيان ما أضعف منك أو أقوى منك لا يهم، لكنك تود أن تشعر أنك جزء من شيء يضمك إليه"، وفي يوم لم يكن على الحسبان جاءت تحمل إليَّ القهوة، وقفت أمامي، ونظرت في عمق عيني من خلف برقعها، قلت لها: "لا داعي لإخفاء وجهك فقد رأيت كل شيء، وضحكت"، وللمفاجأة، لم تكن تملك تلك الروح الخجول، بل اقتربت مني، نظرت في عمق عيني مجددًا، وقالت: "كل شيء؟" ارتبكت، ورأيت في عينيها صورة لي، صورة قديمة طارت من رأسي، شعرت بدوار، أشحت بنظري عنها، فقالت "تخاف؟" لم يكن رأسي يستطيع التفكير في رد، اجتاحتني صور قديمة، ومشاعر انبثقت فجأة، تفجرت في قلبي، وشعرت برعشة في أرجاء جسدي، ثم قالت فجأة "تخاف الحقيقية؟". أمسكت رأسي بيديها وأدارتها نحو عينيها السوداوين برفق، وقالت: "أنا أول أبواب الحقيقية".

اقتربت مني، وضعت شفتيها المنحوتتين فوق شفتي، وتوغلت أكثر، مدت لسانها داخل فمي تبحث عن شيء، تجمد رأسي، وشعرت بأني أذوب، أو أتلاشى فتمسكت بها. عانقتها، كأني أتشبث بها من الاختفاء، وبعد دقيقة ولا أكثر فكت نفسها برفق من بين يدي، ورحلت وهي تقول: "ستُفتح الأبواب".

في اليوم التالي جاءتني بالقهوة في الكوب المعدني نفسه، بدأت أرى أن مجيئها شيء يخصها وحدها، ثم بدأت أشعر أنها تأتي مدفوعة من أخيها، لكن تلك الشكوك كانت تتطاير فجأة حين تتلاقى الشفاه، وحين تتلاقى الأجساد، وفي المرة الثالثة، ضممتها إليَّ بعنف، تحسست جسدها كله، وانقضضت على شفتيها، وانقلبنا على التراب نلهث، لم نخشَ أحدًا. جذبتها نحو الشجرة حتى لا تحترق من الشمس، ارتميت فوقها بحركة سريعة، واستسلمت لي ولثعباني الذي أكلته الحرارة يبحث عن الرطوبة في زحفه ناحية مسكنه الأبدي. تعرقنا، ولهثنا مثل حصانين جابا البلاد طولًا وعرضًا، لم أشعر أني أفرغ شيئًا، شعرت كأن شيئًا يتسرب داخلي، شقوقي تلتئم، وتنسكب الذكريات في رأسي، كانت تتأوه أسفل مني وتئن أنينًا لذيذًا، لكنه كان يخترقني. يضيف قطرة بعد أخرى إلى روحي، ثم بدأت الذكريات تعود.

اغتسلت بمياه الترعة، كنت هناك خلف الشجرة أتساءل عما فعلته، عما أفعله هنا، أتذكر حياتي السابقة، أمي وكل شيء، حين انتهت، جاءتني سألت "حائر؟".

أخبرتها: "أشعر أني أُدفع إلى شيء لا أعرفه".

فمسحت بيدها فوق رأسي، وقالت:

"فقط انتظر حتى تُفتح الأبواب".

ضاعف كلامها من إحساسي بالحيرة، أخبرتها أني أحبها فقالت: "جميعنا يحب الحقيقة لكننا نخافها، تذكر أنك خلاصنا".

ابتسمت ورحلت.

حين عانقني الإسكندري ليخبرني بأني سأتزوجها، تذكرت كل ذلك في اللحظة ذاتها، الكتاب الأخضر والجملة المحفورة عليه، شعرت أن الأمر أكبر مني، أحطت الإسكندري بذراعي واحتضنته، وأخبرته أني أحب هناء، وتم الزواج".

توقف هنا أطول من اللازم، كأن القصة قد انتهت، أو أن ما سيأتي يصعب عليه حكيه، أشعل سيجارة، وبدأ ينفث دخانها، فسألته: "هل انتهت القصة هنا؟".

قال: "لا، بل تبدأ، لكن يمكنك أن تستنتج ما وقع بعد ذلك".

بدا عليه حزن عميق، وقال: "مات الإسكندري، وزوجتي بعد زفافنا بيوم واحد، خلعت ملابسها، كاملة وقالت، لا تلمسني الليلة، كنت أحبها، أردت أن أشبع منها وأنهل منها.

أشرب من عسلها كما يحلو لي، لكن لأني أحببتها أردت أن أنفذ طلبها. تركتها وخرجت وكعادتي أردت الذهاب إلى الإسكندري، لكني لم أجده في المكان الذي اعتاد الجلوس فيه. قلت لعله يختلي الآن بامرأته، ولعل ذكره الليلة أنصفه، وضحكت. جلست مطرحي أراقب السماء، وحين شعرت بالنعاس توجهت إلى حجرة الإسكندري، لعله يكون انتهى.

ناديته "يا أبا الفتح، يا صديقي، أنا أنام الآن، أين قهوتك؟".

لكنه لم يرد، وبعد دقيقة، خرجت امرأته وأخبرتني أنه نال المراد. وجاء الجميع، كنت قد دلفت إليه فوجدته نائمًا، لم أفهم الأمر حاولت أن أوقظه، ناديت عليه، احتضنته، لكنه كان قد وقع في حلم لا فرار منه. نام وأسبل جفنيه كما لم يفعل قط. خرجت وقلبي مثقل بالهموم، تذكرت أني رأيت مقامه بجوار الجامع الكبير. ربما كنت أعلم أنه سيموت، لكن الآن، وبتلك السهولة؟! تركت حجرته مثقل الخاطر، ذهبت إلى حجرتي ولزوجتي العارية، لا أدري كيف سأسوق لها الخبر، ربما هي تعلم هذا، وحين دخلت وجدتها هي الأخرى نائمة عارية، ارتميت عليها، احتضنتها بقوة، أردت الصراخ، البكاء. لم يخرج مني صوت، ظللت محدقًا في جسدها وأنا أحتضنه، لم أفعل شيئًا سوى ذلك، انكتم قلبي فجأة، لم أستطع التنفس كأن أحدهم حشر القدر بأكمله في فمي جرعة واحدة".

توقف عن الحكي، مسح دمعة هبطت، والتوت شفتاه من الألم، وهو يقول: "غسلتهما بيدي، وجاء القزم، رابطًا عينيه بعصابة سمراء، جاء رغم أنه لا يرى شيئًا، وفهمت لِمَ جاء، كان حاملًا الكتاب بيديه، وضعه أمامه وفتح صفحات بعينها وبدأ يقطع أوراقها بصعوبة يخيطها بعضها ببعض والعصابة السوداء لا تزال فوق عينيه، شعرت برهبة الموت، ورائحة قاتمة تفوح في المكان ممتزجة برائحة الورق القديم، لكنه أمرني أن أكفن الجثتين بعد ما جمعناهم في حجرة واحدة، كانت زوجتي ما تزال عارية أمامي في حجرتي، وحين حملت الإسكندري وأرحته جوارها، كنت أتساءل أتدري الآن أنها ترتاح بجوار أخيها؟ وضعت يده على رأسها حتى يطمئن أحدهما الآخر. وحين انتهى القزم من ربط الأوراق بعضها ببعض حتى صارت كفنين متماسكين من الورق الأصفر، كفنتهما كأني أضع قطعة من قلبي في كل كفن.

حاولت قراءة ما كُتب على الأوراق، لكن الحزن امتلكني، كنت أكفنهما بأعصاب ضائعة وقلب منفطر ليس خالي البال ليقرأ. وحين حملنا الكفنين سرنا بحرص حتى لا تتمزق الأوراق ونحن نحملهما فوق محفتين، كنت ضائعًا أجري لأحمل محفة الإسكندري في الأمام، ثم أعود لأحمل محفة زوجتي في الخلف كأني مجنون. وحفرنا أسفل شجرتين لنضع الجثتين، وحينها لمحت على كفن الإسكندري:

"وارضَ اللهم عن عبدك أبي الفتح الإسكندري، جاب الدنيا طولًا وعرضًا، مستيقظًا في سبيل مخلصه".

زادت رهبة الكتاب في قلبي، وحين أخذت أبحث عن القزم كان قد اختفى هو والكتاب، صلينا على الاثنين، ودعونا لهما، ورحل الجميع، قاطفًا برتقالة، وحين جاء دوري قطفت برتقالة وفتحتها للمرة الأولى فسال الدم منها على جلبابي".

خرج من الأجمة وقد تلطخت ثيابه بالدماء، وامتلأت رأسه بالغموض، كلما أغمض عينيه برهة؛ رأى الكتاب الأخضر ينفتح، يقرأ: "وارضَ اللهم عن عبدك عيسى ابن هشام، جاب الدنيا بطولها وعرضها ولم ينم".

راح ليطيب خاطر امرأة الإسكندري، فوجد النساء قد اجتمعن في بيتها، فتركها للنساء، وحين اختلى بنفسه، بكى حتى احترقت عيناه وحينها تذكر كل شيء.

## "عودة للبدايات"

تتذكر كيف نظرت إلى يوسف الذي صمت فجأة. تسأله: "وبعد ذلك؟".

تسمعه يقول: "أخذ النعاس يصيب الناس بالتبادل، ينام رجل، فيخيط له القزم من الكتاب كفنًا، ويدفنونه، وفي اليوم التالي تنام امرأة، واستمر سيل الجنازات لكن أكثر حدة من قبل وأخذ يسائل نفسه: كيف أوقع نفسه في تلك المأساة؟".

تنهض من فوق قدمه، وتسأله: "والذي تذكره؟".

فيقول لك "تلك قصة أخرى".

فتعود لتسأله: "لكن متى ستكمل حكيها لي؟".

تراه يبتسم: "لا بُدَّ أن أحدًا سيكملها لك، أما الآن فالليل اقترب، وعندك بكرة سفر طويل، لسه مصمم على موضوع السكن؟".

فقال عمر: "فرصة لتغيير وقع الحياة، لسه انت مصمم متجيش تساعدني في نقل الحاجة بكرة؟".

لم تجِب، لكن تنهضان معًا وتمشيان من جانب المقابر إلى المبيع القديم، تسيران ناحية مركز الشرطة، ثم تتجهان ناحية المزلقان، تنزلان إلى عبد المنعم رياض، وبينما تسيران يسألك: "لسه حزين؟".

فتقول مازحًا: "فاكر أحمد منيب الحزن له صاحب؟".

تتذكر حين سمعتماها أول مرة في سيبر الأهرام، بينما كان أقصى همكما، هروب جيد من المدرسة، ومصروف يكفي لفتح ساعتين على جهازين متجاورين، تلعبان كونكر. تتذكر انسجامكما مع الأغنية حتى حفظتماها. كان ذلك في زمن يتناسب مع ما كان يعلق في ذاكرتكما من الأغنية وهو: "بحبك في لون الضي في بكرة المبتسم والجي"، ثم بدأت علاقة جديدة بموسيقى أحمد منيب: الوعد والمكتوب، والليلة يا سمرا، واتخذاكما من صدقني يا صاحبي أغنية تخصكما وحدكما. يوسف يعترض على اختيارك لذلك الكوبليه: "والحب برضوا له صاحب في الأول، يا عم عمر متنساش".

تضحك "ما أنا صاحب الحزن بس، يا يوسف، والله".

فيسألك مستفهمًا: "ما زال غيابه يؤثر فيك؟".

"اعتدنا الأمر في البيت، لا نفهم، أهرب منا أم أنه هرب من نفسه؟! تلت سنين.. أظنه مات فعلًا".

يضع ذراعه على كتفك ليسألك:

"تفتكر الغياب أفضل أم الموت؟".

تضحك مجددًا: "عاوزني أقولك الموت طبعًا، عشان الموت حاسم والغياب بلا بلا بلا".

يضحك محاكاة لك: "إنت شايف إيه؟".

فتقول: "الغياب أهون من الموت، يا يوسف، الموت حاسم بالفعل، لأنك تسلم أن الذي مات قد أضحى ذكرى، وليس احتمالًا، ذكرى تتلاشى، حتى إن طال تذكرها، ستتلاشى مع الوقت والانشغال، الموت قاسٍ على الميت لأنه يسلمه للنسيان، أما الغياب؛ فهو تذكير دائم بأن هناك شخصًا سيعود، انظر له من هذه الناحية، إنه أمل".

الشارع مزدحم فيقرر يوسف، أن تذهبا خلف مجلس المدينة أمام الأرضي الزراعية الفارغة لتكملا حديثكما. وحين تتجاوزا الازدحام، يقول يوسف: "لكن لو الغايب مرجعش، نروح فين بكل الأمل اللي خزناه في الانتظار؟!".

تنظر تلمح السماء وقد استسلمت لليل، وتصمت حتى أفكارك داخل رأسه تصمت. لم تدر ماذا تقول، غياب أبوك؟ ضياعه كان كابوسًا، ورطك في كل هذا الحزن. تعود رأسك تضج بالأصوات والأفكار، هل سيعود الرجل الذي قرر أن يذهب ويختفي من حياة

زوجته وأبنائه، وهل قرر الاختفاء، أم لعله مات؟ لكنك تقول شيئًا لأن عليك أن تقول: "نحن في البيت لا نعرف. أمي تقول إنه مات، وقد أعلنت الحداد عليه منذ زمن. وأنا أؤمن أنها تمتلك حكمة خاصة بها وبصيرة نافذة تجعلها تعرف الحقيقية، يمكن موته حقيقة لكني بحس إنه لسه عايش في مكان ما ".

قصدك...؟

– موجود، في مكان، يعيش هنا أو هناك، وأؤمن أني سألقاه، لكن ماذا أقول له وماذا يقول لي؟ سأعود إلى أمي وأخبرها، لن تصدقني، ستعقد الإيشارب الأسود فوق رأسها كما اعتادت مؤخرًا، ستقوم الليل وتستمع لقرآن الفجر، تصليه ثم تنام.

تصمت دقيقة، تتأمل يوسف، ثم تتابع: "أشعر بالأسى ناحية ابن هشام ذاك، عالم مليء بالموتى، لا أتصور كيف سيكون حاله حين يتذكر أنه بعد كل هذا كان عليه أن يذهب ليدفن أمه بيديه".

يغرق يوسف هو الآخر في صمته؛ فعوضا عن أن يجعلك سعيدًا، وأن يسليك بقصه، اختلق قصة حلم، خدشت جروحك، وأفكارك القديمة عن الموت. وبدا الموقف كأنه سينفجر، يوسف، يأسف على ما حدث بغير قصد، وأنت غارق في أفكارك عن الموت، عن أبيك الضائع، وستحضر

صور الموتى الذين فارقوك، وتأبى الاعتراف به ميتًا منذ زمن. ويقول لك قلبك: ما أنت سوى ميت، وكل ما يلوح في الأفق ينذر بالسوء. وبينما تسبح أفكارك، تسمع صوت صفير يغني يتبعه صوت رقيق، تذكر أنها كان قادمًا من يوسف يردد:

"الحب ليه صاحب

والكره ليه صاحب

الحزن ليه صاحب

والفرح ليه صاحب".

تنسجم معه في الغناء والصفير، نافضًا أفكارك عن رأسك. وسويًّا ترددان في صوت يحاول تجاوز البكاء للإمساك بتلابيب اللحن: "وأنا... وأنا ع الوعد متصاحب".

نهضا معًا وهما يغنيان، وحين اقترب يوسف من عمارته، صعد إلى شقته أعلى البوسطة، ودعه عمر، ورحل يصفر ويردد في رأسه: "وأنا... وأنا ع الوعد متصاحب".

## "لو كنا سنبدأ الحكاية من جديد!"

يتذكر عمر حافظ إبراهيم أنه جالس أباه، تحت ضوء اللمبة الواحدة في زمن كانت فيه رمزًا للصبر والصمود في الصالة، يتذكر أنه كان يجلس أمامه، وهو يمسك بكوب الشاي، يضرب عليه بدبلته الفضية، يمسك كتابًا بين يديه، وهو في لحيته الصغيرة الفضية وشعر رأسه الذي ابيض من شيب أصابه مبكرًا صورة الغارق في سكينة أبدية. يتذكر صوته الرخيم، كأنه قد عاش عمره كله في صياغة الحكم وتلاوتها على الناس. وأنه هو عمر حافظ لا يشبهه في شيء، رغم أنهم جميعًا أقسموا بكل مقدساتهم أنه أكثر من يشبه أباه في عالمهم الفاني، وأنه حالم في دنياه غارق في أفكاره وتساؤلاته وصمته الذي يناهض سكونه، وأنه هو عمر حافظ، صورة أبيه في صباه وسيصير صورته في كبريائه عند كبره، الأنف الضخم، والوجه العريض والحاجب الكثيف، جميعها تتطابق، يتذكر أنهما أحبا بعضهما بعضًا، واستقر كل

شيء في دنياهما الصغيرة حتى ضاع في غمضة عين، وتساءل في دهشة تليق بغموض الرحيل: "لِمَ قرر هناك الرحيل؟".

كان ذلك قبل ثلاث سنوات، حين حكى له آخر القصص، اقترب منه، نام على قدميه الدافئتين، وتركه يمسد على شعره، وصوته يردد: "كان ياما كان".

عادت طفولته أمام عينيه، تكرار متواتر من الحكايات التي صنعت الحياة أمامه كقصة واقعية تشوبها الخرافة، كأنها حلم طويل دائم يحكها شخص ناعس منذ الأزل، رجل أو امرأة أو لعله أبوه، صاحب العالم، ضحك في رأسه. وفتح عقله للحكاية الغريبة، واهتز قلبه لرهبة المكتوب في اللوح المحفوظ، قصة لا يحكها الآباء، عن كتاب في ضخامة الكون، خط فيه كل ما كان وما سيكون، انتابته رهبة الفكرة، وغاص في أعماقها، أن الزمان حاضر بالكامل في كتاب.

الماضي زوج الحاضر والحاضر يحمل في رحمه المستقبل. وحمل إليه الاضطراب خوفًا على هيئة سؤال:

عمَّ عساه يحدث لو حذف سطرًا أو أزيد من سطر؟ لكن الإجابة تأتيه من فم أبيه كأنها آتية من بئر عميقة: "رُفعت الأقلام، لا مجال لحذف أو لتعديل" وقع القلب في محنة التسيير، وخاض غمار الشك بدافع الخوف، والسؤال بدافع الاطمئنان، لكنه لم يطمئن وضاعفت الحياة من قلقه، كأنه قُذف إلى الوجود فجأة، "ولو أخطأت؟ لا مجال للإصلاح؟

ولو كنت العاصي منذ الأبد من يحمل عني ذنوبي، وإن كنت الشقي في الحياة من يحمل فوق كتفه ذنب شقائي؟ أتنتهي الحياة ببساطة المكتوب؟ أن المقدر سيكون؟".

في عصرية اليوم التالي يناديه وهو منكفئ على المكتب أمامه في حل شيت مهم للكلية، قائلًا: "يالَّا البس وتعالى هنروح مولد البدوي".

يبتهج قلبه لسماع اسم السيد البدوي وليلته الكبيرة، كم رجاه أن يذهبا، لكنه كان يتعلل بانشغاله في قراءة كتابه الذي لا ينتهي، يقول لن يكون له حق أن يذهب دون أن ينهيه، لأنه أصل ذهابه، وفي تلك اللحظة حين ناداه للبدوي سأله:

"انتهيت من الكتاب؟" أشار إلى كيس أسود بلاستيكي وقال: "رايح معانا هو كمان".

يرتدى عمر جلبابًا أزرق اشتراه مؤخرًا لصلاة الجمعة؛ كي يستطيع الدعاء بخشوع، لكنه الآن لا يتذكر كم مضى من الوقت منذ آخر دعاء دعاه، وكم دعاء بالفعل استجاب.

تودعهم أمه وداعًا لطيفًا، وهي منكفئة على البوتاجاز، وتتمنى لهما السلامة، وتوصي عمر أن يدعو لها بالصبر عند البدوي، حينها تأملها مطولًا. بدت مسنة كأنها أقدم من جدران البيت المنهار، كأنها مطبخه القديم، وتحسس فيها الهرم والصبر وتعب السنين الطويلة. ورغم كل شيء

ظل عقدها الأسود على صدرها يلمع كنجمة خالدة بعمر الكون. وغادرا من البيت إلى عبد المنعم رياض ومنه إلى المحطة، ورمق عمر من بعيد المحطة وأشجارها فكانت مثل جنة صغيرة، وحين صعدا على الرصيف تأمل الطيور والعالم وقلبه فرح بمرافقة أبيه، ومتلهف للرحلة الجديدة.

القطار بوابة الأزمان والأماكن النائية عن الذاكرة والوجدان، هكذا تتدفق الأماكن من اللاشيء عبر نافذته المفتوحة دائمًا، وتتلاشى قبل أن تدري لوجودها معنى، أبوه يحمل الكيس البلاستيكي الذي لا يدل على أنه يحوي الكتاب الضخم الذي أخذ يقرأه منذ قرابة العامين، لكنه بالفعل هناك، بدا لعمر أن كل شيء يغرق في القداسة حتى اهتزاز القطار يراه كمريد يتأرجح ويردد ذكر الله على لسانه.

قلبه متشوق لليلة الكبيرة، ورؤية المداحين والدراويش، وفمه مشتاق لطعم الفسيخ والبصل. وطنطا بلد الأنوار، والفرحة مبسوطة في السماء إلى غيب بعيد، النساء والرجال في تزاحم، خيام الطعام، والطبل وكل شيء له وقع خاص رائحة خاصة وجمال ينضح منه، يناوله أبوه دبلته الفضية وقال: "احتفظ بها من اليوم".

يقبلها عمر، ويقبل يديه الصغيرة البنية، فيحنى الأب على رأسه، وقال في صوت ناعس: "حروح أودي الأمانة لصاحبها" ويذهب.

انتظره ثلاث ساعات، ولم يأتِ. ذهب وجلًا يبحث عنه في توتر وضيق صدر، وفرح صار غمًّا، ظن أن أباه يبحث عنه أيضًا كأنهما يدوران حول بعضهما بعضًا، نظر إلى الأنوار في السماء، وتداخلت أفكاره مع أصوات المنشدين، اتجه داخلًا في حلقة ذكر يهز رأسه بين المريدين، كان يبحث عنه في وسطهم، يردد: "الله. الله" المساء بدا كسلطان موشح بالسواد، قلبه منشغل بالبحث عنه، وعيناه تفتش في الناس، وجسده يهتز، وحركاته تتأجج، وعرق يتصبب منه، لا يدري كم لزمه من الوقت حتى يتلاشى كل شيء من أمامه، تتلاشى الأصوات والأشخاص والأنوار، انكب السكون في الكون فجأة يبشر بالاطمئنان، وتعالت أنفاسه تتردد على مسمعيه، واسم الله ينبثق في رأسه كدفقات شديدة السطوع كل ثانيتين، وعالم انفصل عنه، ووجود فارقه كأنه يفارقه للأبد، ويد تمسد على قلبه كانت تسكنه منذ الأزل، لا يدري كم لزمه من الوقت حتى يدرك أن الذكر انتهى وأنه كان ما يزال واقفًا هناك بمفرده يهتز ويذكر اسم الله، ورجال يصورنه، ونساء يتباركن به، وشباب يقبلون يديه، وسبح عُلقت على صدره مثل أوسمة نصر مقدس لصالح العجب والمعجزات، كأنه آية كونية أو كأنه امتزج بالآيات، كم لزمه من الوقت ليفيق على صوت أبيه، لكنه لا يجده، فيجري كمجذوب يسأل عنه: "رجل ضائع بلحية بيضاء لا تخطئه العين".

والأصوات تأتيه: "المفقود هنا موجود".

"الرجال لا تضيع في البدوي".

"وهل يمكن لمن يضيع في البدوي أن يعود؟".

بات على أحد الأرصفة في الشارع، وفي الصباح توجه للمحطة، لا يدري بماذا يخبرهم. أمه لو علمت ستقع من الخبر، وأخته الكبيرة اللي على وش جواز لن تتحمل مصيبة أخرى، لكنه عاد وأخبرهم: "ضاع مني ولم أجده".

حسبوه يمزح، وبعد ليلتين صرخت رباب لأنها علمت بغريزة الزوجة المطيعة أن أولاد الحرام قد قتلوه، وأعلنت الحداد، وجاء الأهل يعزون في الفقيد الذي ضاع، ورباب التي خشيت طيلة عمرها أن تصبح أرملة اكتست بالسواد، وبكت مع الليل دموع ودماء. وبلغوا جميع الأقسام، بحثوا وبحثوا كأنهم يبحثون عن طفل صغير، لكن لم يكن له أي أثر. وعمر الذي كان يحسب الموت شيئًا بعيدًا عنه اقترب خطوة منه، وشعر بأن في الأمر لغزًا وغموضًا، وما علاقة الكتاب بالأمر، وانشغل رأسه بالندم لأنه لم يطالع يومًا كتاب أبيه، لكن قلبه ظل معلقًا بأمل أنه لم يمت وأنه إنما فارقهم مدة من الزمان.

وحين فتح فيس بوك مصادفة، وجد نفسه مصورًا، ومحل تساؤل وسخرية الكثيرين، وسُمي الصبي المعجزة، المتوج

بوصفه إحدى معجزات البدوي، حينها قرر ألا يستخدم فيس بوك مجددًا، وعرف الناس في أشمون أنه هو صاحب الكرامة، جاءوا يطلبونه بالاسم ليتباركوا به متجاهلين المحنة التي أصابت الأهل، والحزن والجزع البادي في وجه أمه وهي تطردهم بلا رحمة. يتذكر أنه كان محل سخرية وموضع من أهم مواضعها بين أفواه الزملاء في الكلية، فانقطع عنها فترة حتى تهدأ الأمور وينسى الجميع ما حدث، ووصله أن هناك فتاة اسمها ريهام، دافعت عنه، وهذا ما جعله يبتهج، أن هناك أحدًا في هذا العالم يقف في صفه، وحينها تذكر أن يوسف كان دومًا في صفه، فذهب إليه من فوره، يبكي فأتى يوسف بحكمة لا يعرف عمر من أين جاء بها؛ فلم يتكلم يوسف ولم يواسِه، لكنه أخذه إلى البربري، وعزمه على أكلة حواوشي وفراخ مشوية، وتحادثا عن الأفلام، وسارا يقطعان المدينة طولها وعرضها يتناقشان حول النساء، والطعام وكل شيء مبهج، ثم ذهبا ليشربا قصبًا، وشعر عمر مع كل هذا أنه لن يحزن أبدًا طول الدهر، وذلك فقط لأن هناك يوسف.

ثم بدأ يتجاسر، لأنه شعر بأن البيت يحتاج إلى رجل، فبلغ صمت وهدوء الرجال، لم يذرف دمعة واحدة حتى تستقوي نساء البيت بقوته، وقد حاول إقناعهن أنه سيعود، لكن رباب حكمت على زوجها بالموت، لتغرق في حزنها، وآلاء التي تخشى أن يفوتها قطار الزواج نأت بعيدًا عن حزنهم، رحلت عند جدها في المحلة حتى لا تقع فريسة للأحزان.

كانت محاولات إقناعهن، تبدو كأنها محاولة إقناع نفسه من أجل تثبيت الأمل في قلبه كيقين "سيعود" يخبرهن في منتصف الحديث سيعود. أنا متأكد أنه "سيعود".

كانت رباب تتفهم إصراره، وكانت تشفق عليه، تعلم أنه صار كبيرًا الآن، لكن قلبها ما يزال أكبر، تحاول احتضان روحه، تخبره في المساءات المشتركة: "لا يهم إن عاد أو لا.. المهم أنك موجود".

كان يعلم أنها تخشى أن يقع في دورة الحزن التي أصابتها حين مات أخوها، وهي في مثل سنه. يتذكر حين أخبرته مرةً عن اتخاذها الحزن رفيقًا، وأن زواجها من أبيه هو الذي أخرجها من تلك الرفقة. إنها تتذكر حافظ كرجل سهل ولين، زاهد في دنياه مقتصد في حياته، عمل في محطة الكهرباء بصبر حتى خرج على المعاش، إنه حكاية تحكيها في جلسات متتابعة كأنها الشاهد الوحيد على أنها عاشت زمنًا لا يمكن نسيانه بالزواج من رجل غريب جاء من سمادون إلى أشمون يقصد العمل في محطة الكهرباء، بعدما انفصل عن أسرته ليستقل في حياه هو بطلها، هاربًا من ظل أبيه العمدة الذي أصر أن يحرمه من حياة لن يستطيع أن يمارسها هو حتى بعد الانفصال عنه، لأن وحي الغناء العذب قد انقطع في أشمون. إنه حكاية قديمة مثل كل القصص المحفوظة في سراديب مكررة، والأب الذي كان على يقين أن ابنه سيعود

لكنفه نادمًا، مات دون أن يراه مجددًا. والأم التي انتظرت بكرها، واراها التراب تحته بعد يقين بأن ابنها لن يعود أبدًا.

وإن شيخه الغامض من أمره بذلك أن يهرب من كنف القرية إلى رحابة المدينة، "ومن كان يعلم يا حبة عيني أن حافظ ابن الشيخ إبراهيم مريد لدى الشيخ عبد الرحمن الأنصاري، أخبرني بكل ذلك في ساعة صفاء. أبوك كان صامتًا طيلة حياته وبقدر صمته كانت ألغازه".

تعجب من تلك الحكاية، ودارت في رأسه أفكار حول العلاقة بين ذلك الشيخ والكتاب فسألها في وجوم: "تعرفي حاجة عن الكتاب الذي كان يقرأه قبل أن نسافر في اليوم المشئوم؟".

مسحت ذاكرتها لدقيقة ثم أخبرته: "شوفته أكثر من مرة، كان في الشقة منذ البداية، حين تزوجنا كان هنا، وحين أنجبنا آلاء أختك كان هنا، وكذلك حين أنجبناك".

صمتت دقيقة ثم قالت فجأة: "افتكرت، الكتاب دا هو كتاب الشيخ عبدالرحمن الأنصاري".

شعر أنه بدأ يمسك بطرف الخيط. بالطبع مات ذلك الشيخ، لكن الأكيد أن لذلك الكتاب نسخًا أخرى، سيبحث عنها.

وحين علم أنه من سمادون قرر الذهاب إليها، تجاوز النعناعية، وسار في الطريق المفضي إلى القرية الضائعة، كان حائرًا يشعر بأن هناك أمرًا على وشك الحدوث، فمنذ وصل إلى الطريق، لم يصادف إنسانًا واحدًا، فقط كلابًا ضالة تنبح أو تنام في صمت، وقططًا تموء فوق أكوام القمامة، وبجانبه النهر يمتد على طول الطريق إلى أن يشاء الله. لم يدرِ لِمَ اختار ذلك التوقيت تحديدًا، لكنه وجد قدميه تجرانه فجأة تحت أبراج الضغط العالي، ثم تمران به إلى الطريق، بعدما فات وقت العصر، وبدأ السحاب يتفجر برتقاليًّا مع الغروب. أهل الطريق الذي يؤدي القرية قد آووا إلى منازلهم.

وأفضى به الطريق إلى آخر تحفه نباتات خضراء على جانبيه، حجبت النهر عن يساره، كما حجبت المنازل الصغيرة المستكينة بهدوء في قلب الأراضي الخضراء. وشعر كأنه يطأ مكانًا مقدسًا، وربما كان ذلك لارتباطه في ذهنه بذلك الشيخ الغامض، وناجى نفسه: بالطبع مات وارتوت الأرض منه، لكنه لم يقصده بل يقصد سيرته، سيبحث عن أي شيء يرتبط بأثره، لعله يجد أي حل للغز والده، أو شيئًا عن الكتاب. وراوده إحساس ملازم بأنه لا يسير للأمام بل يهبط، حتى انتهى الطريق الأخضر، وبانت مياه النعناعية مجددًا، واتضحت مراكب الصيادين العائدة برجالها تحت الشمس الغاربة، كانت الشمس كذلك تشبه

كرة ضخمة مشتعلة بلهب برتقالي ظل يغمره حتى وصل إلى أطراف القرية، وحينها سمع أذان المغرب، شعر بأنه ينجذب إليه، وأن طلاوة الصوت وحلاوته تناديه "حي على الصلاة حي على الصلاة"، فقرر أن يتبع الصوت إلى المسجد، وأدرك بحاسة جيدة أن الشيوخ يعرفون بعضهم بعضًا حتى لو مضى عليهم ألف عام، بالطبع سيجد سيرة الأنصاري أو أحدًا يعلم شيئًا عن الكتاب وأبيه، ووجد المسجد القديم، حجريًا وضخمًا، وحين دخل لم يجد سوى المؤذن القصير، وكان هو الوحيد الذي يملأ الصف بأكمله خلفه، وحين سأل عمر الإمام عن الأنصاري ابتسم وقال: "كثرة المداومة على السؤال تفتح أبواب الإجابة". بدا له أن كل شيء متعلق بتلك القصة مليء بالألغاز، لكنه قرر أن يخوض المغامرة لآخرها.

وانتظر أن يقول الشيخ أي شيء لكنه لم يزد على ما قاله بل نهض لينصرف، حينها نهض عمر خلفه وعاد إلى أشمون يتأمل العالم الغريب الذي جاء منه للتو، عاد يلحظ أنفاس المدينة الحارة على وجهه، وشعر بالفرق الكبير عن القرية الحرة ذات الهواء البارد والمنعش.

في اليوم التالي عاد في الميعاد نفسه، وجد الشمس كما كانت تصبغ الوجود منذ الأزل، الصيادون عائدون برزقهم، بعدما آوت كل الكائنات إلى جحورها، وركل بقدمه سهوًا ضفدعًا متحجرًا، وتعجب من أن يموت هو ويُركل هكذا،

وتصور حياته السابقة المليئة بالقفز والمرح، هل كان الضفدع يتخيل أن آخر قفزة ستكون ركلة حذاء غير مبالٍ؟

وصل المسجد بعدما تجاوز إحساسه بالهبوط الدائم، وشعر في جوفه أنه يستقر أخيرًا، وكما المرة السابقة لم يكن هناك سواه والإمام، ولما صلى المغرب اقترب من الشيخ القصير وسأله عن الأنصاري؛ فردد قوله الأبدي: "كثرة المداومة على السؤال تفتح أبواب الإجابة". ظل يتردد إلى الشيخ بصبر حتى أعجبه المكان، ومن كثرة تأمله له كاد يحفظ تفاصيل مراكب الصيادين وما كُتب على كل واحدة: "الله الرزاق".

"ما شاء الله".

"لا قوة إلا بالله".

وحين لمح بيوت القرية القصيرة التي كانت من الطوب الأحمر في أحيانٍ كثيرة، يجد كلمة كُتبت بالطوب الأبيض، تشبه ما كُتب على المراكب:

"الله الرزاق".

"ما شاء الله".

"لا قوة إلا بالله".

لكن في المرة الخامسة، انشغل بالتأمل؛ ففاتته الصلاة ركض إلى المسجد ليلحق الشيخ، وحين قابله على عتبة الباب

أخبره الشيخ وهو يبتسم دون أن يسأله: "التسليم للموت يفتح أبواب الحياة"، وأمره بالانصراف. وفي اليوم التالي حين عاد لم يجد الشيخ، لكنه وجد رجلًا آخر، وحين سأله عن الشيخ القصير أخبره أنه لا يُوجد هنا أي شيوخ قصار، حينها أراد تجاوز الموضوع ليدخل للب المجيء فسأله عن الشيخ الأنصاري وكتابه، فقال الإمام له: "الأنصاري مات منذ زمن، ولا أحد يعلم شيئًا بشأن ذلك الكتاب".

خرج خائب الأمل وقرر أن يعود، وحين كان على وشك المغادرة وجد امرأة تقف بالقرب من المسجد، كانت مثل العجوز التي تجول في الحكايات لها وجه طويل وأنف حاد ومستقيم، ترتدي الحداد بشكل يوحي بأنها لازمته دهرًا. تأملها مطولًا ثم مضى بالقرب منها يكاد يتجاوزها، وما كاد يفعل حتى نادت "حافظ" انتبه إليها، وعاد يقترب منها، فوضعت يدها على وجهه بشكل أفزعه، فابتعد، فقالت: "خايف من سيدة؟".

تأملته: "ها أنت شاب للأبد كما أردت، وسيدة توشك أن تبيت عجوزًا للأبد".

ضيق عمر بين حاجبيه، وقال: "أنا مش حافظ" فتراجعت، وتساءلت في داخلها، لكن كيف! الشكل والصوت وحتى الرائحة، سألها: "قصدك حافظ إبراهيم؟".

تنهدت طويلًا، فقال عمر "أنا ابنه".

لن يعرف أبدًا أن شيئًا بداخلها انكسر للأبد، سألته: "من أشمون" فقال "أيوا".

فمن كان يعلم أن حافظ حين هرب عاد للمدينة التي كسرته، ثم ها هي ذي سيدة تقف أمام ابنه وقد أقسمت بأغلظ الإيمان أنه يشبه أباه، وسألته: "بيحس بإيه لما بيشوفك".

أخبرها بأسف: "لا أدري، فحافظ قد ضاع للأبد".

يتذكر أنها نهرته في كتفه، وقالت بصوت حاسم: "هذا كلام لا يقوله من يعرف حافظ، فحافظ دائمًا يغيب لكن عمره ما يضيع للأبد".

صمتت وتابعت: "دي عادته منذ ارتبط بالشيخ الأنصاري".

الأنصاري! لن يصدق أنها تعرفه، وتساءل عن علاقتها بأبيه، ولما تأملها أدرك أن بها بقايا جمال رغم الزمن الغابر، لكن لِمَ تقف هنا الآن؟ وأين ذهب الشيخ في هذه الليلة؟ وكيف سيبحث عن أثر الأنصاري أن كان قد فقد الخيط الوحيد الذي شعر بأنه أمسك به؟ أسئلة تزاحمت في رأسه، ولم يجد لها إجابة واحدة، ولما سألته: "ما الذي دفع ابن حافظ للمجيء ولم يدفع حافظ نفسه؟".

صمت وبلع كلامه، كان يود أن يخبرها في تلك اللحظة أنه جاء من أجل الأنصاري، وعدم عودة أبيه هي لب المسألة،

فما الذي يدفعه للمجيء إلى هنا سوى البحث عنه، وفجأة كسر الصمت الذي أطرق بينهما، وقال: "أنا بدور على الشيخ الأنصاري".

شعر أنه يخرج الكلمة من جوفه كأنه يتقيؤها رغمًا عنه، تجهم وجهها، واستندت إلى عصاها الخشبية وقالت "مات منذ زمن".

لكن صوتها لم يخرج.

هي الأخرى لا تعرف لماذا كان عليها الصبر كل ذلك الزمن؛ فمن يعرف العمر مثلها لا يطمئن، يتنهد طويلًا، ثم يبصق على المجهول. ثم ها هي ذي تستعجب من قلبها فلم تعدها ملامح الوجه التي حفظتها يداها إلى ذاكرتها، بل أعادتها السيرة المشؤومة وذكرى الضياع الأول، تنهدت وقالت في رأسها: "لا أحد يعلم، ربما لم يمت، لم يعد أحد هنا يفرق بين حي وميت".

حسب أنها تجاوب عن سؤال آخر ولم تسمعه فعاد يسألها: "تعرفي حاجة عن الشيخ الأنصاري".

ماذا تقول؟

ضائعين وأموات ولاد أموات؟ كيف تخبره أنها سمعت صوته يؤذن المغرب لأكثر من خمسة أيام؟ لم تصدق أذنها، وحين جاءت للمسجد القديم تغير كل شيء، لم يعد الصوت

كما كان. ولما أدركت أن صمتها طال قالت أخيرًا بيأس من دام عمره يبحث عن شيء لن يجده، ورنت نبرة الحزن في صوتها "كان هنا ومشي، يمكن حد شافه ويمكن محدش شافه ومن شافوه أكيد معرفهوش".

سألها: "قصدك إيه يا أمي؟".

يتذكر صمتها، لكنه لن يعرف أبدًا ما دار في قلبها، كيف احترقت جذوة ترقد منذ ثلاثين عامًا، جذوة اشتعلت بحب حافظ، وانتظاره، كيف تبدد يقينها القديم بمرور الزمن، بأنها كان يجدر بها هي وحدها، سيدة علي، أن تكون أمه هو عمر حافظ وليس أحدًا آخر!

يتذكر أن الشك دفعه ليعتقد أن بها مسًّا أو مسحة جنون، لكن حين أخبرها أنه يبحث أيضًا عن شيخ قصير بوجه عريض ولحية بيضاء، يبدو للناظر مثل رجل خاض الحياة من أولها لآخرها، عرفت أنه هو ولا غيره، الشيخ الأنصاري، وأنها إحدى كراماته، وارتاح قلبها للشك الذي داهمها فيما سمعته من أذان المغرب لخمسة أيام متواصلة، في تلك اللحظة ابتسمت في سرها وقالت: "إنت من الموعودين اللي اتكتب لهم يقابلوه".

تنهدت وقالت "زيك زي أبوك".

سألها "يعني الأنصاري لحد دلوقتي مماتش".

قالت وقد جلست لترتاح على حافة حوض طلمبة الماء أمام المسجد "مفيش فرق أبدًا".

ثم عادت تسأله: "بتدور عليه ليه؟".

ارتبك، لكنه لم يجد بُدًّا من مصارحتها، بحقيقة ضياع حافظ، وكتابه الأخضر، فمدت يدها إليه وقالت "عِيني يابني".

وقامت مستندة إليه، تتألم من عظامها، وتأبطت كتفه، وقالت: "أنا هحكيلك كل حاجة، لكن في الأول قولي هو قالك إيه ساعة ما شوفته".

لاحظ تعطيشها لحرف الجيم فابتسم من بساطتها، وقال متعجبًا من تعاملها معه كأنها تعرفه منذ زمن: "أشياء عن الصبر وأبواب الإجابة، وعن التسليم بالموت وأبواب الحياة".

فقالت متعجبة "شوفته شوفته واللا كنت بتحلم؟!".

ضحك وقال "تقريبًا مفيش فرق".

سارا داخل القرية القديمة، الأنوار خافتة، إضاءة برتقالية تضفي على الوجود إحساسًا بالقدم، كأن تلك القرية وحدها تملك الجذور الحقيقية للحياة والموت.

الشمس غربت، وتعلق أبو قردان في الأشجار وبدا من بعيد مثل ثمار ناضجة، لم يكن يعلم إلى أين تأخذه، ودارت في رأسه ذكريات عن الجنية والنداهة، وقال له قلبه لا بُدَّ

أنها واحدة منهن، لكن قلبه ارتاح لها بعد دقائق، وشعر بشيء غامض يجذبه نحوها، كأنها تملك مفتاحًا ما أو شيئًا هي وحدها من أغلقت قلبها عليه، دهشته بالقرية الغارقة في الصمت كانت أكثر من دهشته بالموقف كله، أيعقل أن مكانًا كهذا بأكمله لا يخرج منه أي أحد! الأضواء لا تخرج من البيوت الصغيرة أمامه، لا صوت سوى نقيق الضفادع أو نباح كلب آتٍ كأنه صدى تأوه بعيد. وبدا المكان أمامه كأنه مغطى بطبقة كثيفة من الضباب، ولم يكن يدري كيف تقوده وهو نفسه لا يستطيع أن يرى أبعد من قدمه، لكنها قادته ولم يكن يعلم لأين ولا لمتى، وحين وصلا إلى شجرة جميز قديمة جلست على مصطبة مهجورة تحتها، وقالت: "استمع جيدًا فهذه هي الحكاية كلها" ثم تنحنحت، ولما وجدته ما يزال واقفًا ابتسمت له وقالت: "هتفضل مذنب نفسك كدا يا ضنايا، تعالى اقعد في ريحي" وأفسحت له مكانًا جوارها وبدأت تقص عليه الحكاية، لكنها لم تكن تعرف من أين تبدأ فقالت: "من هناك يبدأ كل شيء".

أشارت إلى الناحية الشرقية، ثم تابعت: "هناك عند جامع أبو بكر الصديق تقريبًا تبدأ الحكاية، أصل أبوك لما كان صغير كان غلباوي ووحيد في قلبه، وقلبه نفسه يتعلق بالمشي لوحده، كان ابن عشر سنين لما تاه أول مرة، راح بعد المغربية، ستك قالت ساعتها: "كان راجع يا ولداه من البندر

زعلان، العيال اتريقوا عليه عشان يا ضنايا بيعطش الجيم، ولاد الكلب، كسروا بنفسه، هروه تريقة على الباتا، ولحظة ما رجع رما الكراس، قلع الباتا، وقال: "أنا ماشي ياما، رايح أزيح الهم كأنه كبر عشر سنين فوق عمره يا ولداه، فطلعت وراه لكنه كان اختفى".

ساعتها، قلبوا الدنيا عليه، ومرجعش غير تاني يوم، هو حكالي كل دا بنفسه بعدين، لكن يمكن الحكاية مبدأتش من هنا، أفتكر البداية كانت قبل كدا خالص، كانت لما اختفى أول مرة وأعاده الأنصاري".

كان حكيها غير مستقر، ولم يستطع عمر التركيز، وشعر كأن هناك شيئًا آخر ينبش في ذاكرتها، فهي لا تستطيع أن تتذكر البدايات بشكل واضح، ربما أرخت القصة بزمن الحب الضائع، وحين حاولت استعادة ترتيب تاهت، فلملت ذكرياتها وتنهدت، وحكت عن زمن الضياع الأول، حين كان ما يزال صغيرًا وبالكاد قبل حادث الضياع الثاني، هذا ما حكاه بالضبط، أنه هو حافظ قد سرح وراء صوت ينشد الشعر، وحين وصل إلى كوبري النعناعية، اختفى الصوت، وأخذ يتأمل المياه، والأرض.

النعناعية بحر كبير بالنسبة إليه يبتلع الناس والبهائم، يجري منذ الأزل ويتصل بالجنة بشكل مباشر عند أفقها الأعلى، وعلى عتبتها تستيقظ الجنيات ترقص في الليل

وتغوي الرجال. النعناعية بالنسبة إليه لعنة كأشمون، تبتلع الرجال وتغويها، كان ينظر للمياه حائرًا وفاق من سحره على صوت غراب وانتبه لوحدته، أردا أن يعود أدراجه، لكنه وجد ثعبانًا يزحف على الأرض، وقالت سيدة: "كان الثعبان ضخمًا، قل حنش، أكيد تعرف الحنش، كان يزحف على بطنه ويتلوى، وكلما تعثر في الحائط؛ بصق من حنكه برتقالة، أكبر من حنكه، كانت ترشده للطريق، لاحظها أبوك، ورغم أنه كان خائفًا من الحنش الضخم، فإن البرتقالة شدته، فتنته، فانقض عليها قافزًا، حينها انفجر الثعبان وتبخر، هو بنفسه قال لي ذلك قال إنه تبخر فجأة، وحين فتح عينيه ليبحث عن البرتقالة لم يجدها، وأصابه نعاس طويل ونام".

لم يدرِ حافظ إلا ويد تحمله إلى أمه مع الصباح، وتخبرها بصوت هادئ: "حافظ ابتلع في جوفه بشارة الحياة".

لم تفهم أمه لبساطتها مغزى الكلام، كذلك استعجبت من ذلك الشيخ القصير الذي تشاهده للمرة الأولى في القرية، وكيف وجد ابنها بعدما أتعبهم البحث عنه، لكنها تلقفت ابنها، احتضنته ودعت للشيخ، وحين استيقظ الحاج إبراهيم أخبرها أن الرجل الذي رأته هو طيف الشيخ عبد الرحمن الأنصاري، لكنه لم يفسر لها أبدًا مغزى كلام الشيخ، ولا كيف يجول هكذا بعيدًا عن قبره، وقالت سيدة بصوتها القديم الدافئ: "حكى لهم أبوك القصة، تعجبوا، وقال عنه

سيدك: إما أن تكون زاهدًا مباركًا أو تكون ملعونًا"، لكن أبوك لم يمهلهم إلا عامًا واحدًا حتى ضاع ثانية، ودي بقى كانت المرة اللي رجع فيها حزين من بندر أشمون اللي حكيتها قبل كدا، وهذا ما لم يحكه لأحد سواي، تعرف أو لا تعرف".

سكتت دقيقة ثم سألته: "عمره ما جاب سيرتي قدامكم؟".

نظر إليها بأسًى، ثم نبش ذاكرته، وهنا تذكر السيدة التي ملأت قصص أبيه، المرأة اللي تشبه الملاك تارة، وتطير في السماء تارة أخرى، المرأة التي لها رائحة عرق مثل نعناع جاف، والمرأة التي فتنت أباه. حينها ابتسم وقال: "لم يحك سوى عنك يا سيدة، كان يمزجك بالقصص تقريبًا ليهدأ بها ذاكرته، أو يداعب بها عقلي حتى أنام". انبجست منها دعمة، وتساءلت: "حكى عن إيه".

فقال وهو ما يزال يبتسم: "عن امرأة حين ماتت صارت فراشة وطارت بعيدًا".

ابتسمت وقالت: "المهم، في تلك المرة حين ذهب إلى مسجد أبي بكر الصديق، وهو مسجد الدفن الملاصق للترب الشرقية، وجد الشيخ الأنصاري واقفًا هناك أمامه، يناديه، ولما ناداه عرفه، وجري إليه، سلم عليه الأنصاري برفق، وأخبره أن يأتي معه. ولأن أباك كان له قلب سريع التعلق لم يتساءل عن شيء، لكنه رافق الأنصاري داخل الترب، أخبرني أبوك أن قلبه كان على وشك القفز من صدره، وضايقته رائحة

الجثث، ولما وصلوا لمنتصف المقابر حيث تاهت السكك وضاع الطريق منهم، وصلوا عند قبر الأنصاري نفسه؛ فقرأ أبوك المنقوش على المقام المنزوي في ركن صغير: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"، وأسفلها كُتب: "وارضَ اللهم عن عبدك ووليك الشيخ عبد الرحمن الأنصاري"، فسأله أبوك عن الشيخ فقال الأنصاري ولم يكن قد تعارفا بعد: "رجل لا يستطيع النوم يؤرقه كتاب دفن تحت عظامه، ومن يزيح الكتاب يكون من الموعودين"، وفتح له الشيخ الأنصاري بوابة القبر".

لم يفهم حافظ معنًى للكلام، لكنه حفظه عن ظهر قلب بعدما قر في نفسه، دخل إلى المقبرة، وأشعل الشيخ فانوسًا صغيرًا أعطاه له بالداخل، وقال له: "انبش كويس، لحد ما تلاقي الكتاب". ظل حافظ ينبش بيديه الصغيرتين، ويكوم الرمل على الجانب، بينما يشتم رائحة تفسخ، أصابته بالغثيان، وحين أخرج رأسه، يحاول أن يتنفس، اشتكى للشيخ: "الريحة جوا جايفة قوي".

ابتسم له الشيخ: "تعامل معها باحترام يا حافظ، فيومًا ما ستصبح رائحتك مثلها بعدما تمضي عمرك منقوعًا في مسك الحياة" حاول أن يسد أنفه، لكن الرائحة كانت تنفذ إليه، فحاول أن يتأقلم معها وبعد دقائق اعتادها، لأن كلمات الشيخ رسخت في ذهنه، وأقنعته بأن عليه ألا يخجل منها، بل

يحترمها ويبجلها، وحين وصل إلى تلك النقطة فاحت من القبر، رائحة المسك، وبان كفن الشيخ ناصعًا لم يتحلل ولم يسود حتى من طول بقائه الذي لا عمر له، وفي أثناء نبشه حول الكفن، بان الكتاب فأخرجه، إلى جانبه. كان ما يزال يشتم رائحة المسك تفوح من الكفن، وحين أزاح الكتاب وأخرجه، شعر بغريزته أن مهمته انتهت، أخرج الكتاب، ثم أخرج الفانوس، وخرج برأسه. في تلك اللحظة فتش بعينيه عن الشيخ. لم يجده، فخرج فزعًا وجرى، وهو لا يتذكر أغلق باب القبر الصغير خلفه أم لا. جرى لأنه شعر حينها أنه ضاع، كانت الشمس أوشكت على المغيب، ورغم أنه كان يحمل الفانوس بيد والكتاب بيد أخرى؛ فإنه شعر بالظلام مقبل لا محالة، وهنا قالت سيدة: "ميعرفش إيه اللي جرى فجأة، دارت الأرض تحته واترمى، وراح النور من عينه".

سألها عمر: "أُغمى عليه؟". صمتت دقيقة ثم قالت: "مات". نظر إليه وعلى وجهه علامات كثيرة تضج باستفهامات لا يقبلها المنطق: "لكن إزاي؟".

فقالت: "ابن موت يا حبة عيني".

لكن سرعان ما أعاده الشيخ مجددًا مع الفجر يحمله على صدره، أراحه، تحت شجرة التوت أمام دارهم، ولما عاد الحاج إبراهيم من صلاة الفجر، رآه تحت الشجرة، فنادى عليه، فلم يستجب، اقترب منه، وحاول هزه، فلم يستجب،

وشعر بخدر في رأسه، لأن يد الصبي كانت باردة، لكن بعد دقيقة، لمح الحاج إبراهيم طيف الشيخ الأنصاري، وفي تلك اللحظة استيقظ حافظ، وارتمى في حضن أبيه وقال: "حلم طويل يابا حلم طويل جدًّا"، لكنه لم يحكِ أي شيء.

وهنا همست سيدة إلى عمر قائلة: "أخذوه للحكيم، واطمأنوا على حالته، وتشاوروا في مجلس العيلة، حول أسباب اختفائه، وقالوا إن به مس أو جنون، ودوه الزار، ودبحوا عجل من عجولهم، ولطخوا الدار كلها بكفوف خماسية من الدماء كي تبعد الشر عن الولد. وبعد فترة شعر بتحسن، لم يعد يضيع. أخذوا يحاولون إقناعه بعدم الذهاب لأشمون لأنها أساس الشؤم، بس الواضح إنه تعلق بها، لعن أبوه نفسه، لأنه سبب ذهابه لأشمون رغم أن المدرسة الابتدائية في سمادون جيدة؛ إلا أنه أراده أن يصبح رجلًا يعتاد المدن، ويتأقلم على جوها، حتى يتزوج منها ويمضي حياته هناك". كذلك أخبرته أنهما تعرفا في الإعدادية، بدأ حافظ يلحظ وجود النساء في العالم، لما بدأ يستشعر خطرهن، وخطر الاقتراب منهن، نساء البيت أصحبن، يتوارين منه، بعدما كن يخلعن ملابسهن أمامه بلا حياء. ورغم صغره كان يستشعر في الأمر لذة، وحين بدأت فترات المنع، بدأ يتساءل، وهنا قالت سيدة: "كان شنبه خط، ساعة ما شوفته أول مرة، حبيته يابني وياريتني ما حبيته، أبوك أصله كان جميل لكن مكنش

عمره ياخد باله من جماله، واحنا صبايا اتربينا في الغيط والبيت، لكن أمي الله يرحمها صممت أروح أودي لستك غربال الكسكسي، ولحظة ما خبطت على باب الدار فتحلي أبوك، كان أكبر مني بسنة، لكني ماكنتش بنت مدارس زيه، ومين فينا كان يحلم أن حافظ ابن الشيخ إبراهيم، يبصله".

حين فتح الباب تفاجأ بوجودها خلفة، ملاحة ليس لها حدود، لكنه انصرف هاربًا مناديًا أمه من الخجل. حافظ الرقيق الذي لم يعمل في الأرض لأن أباه كان يعده لما هو أكبر، للنيابة. أراده أن يحكم البلد بحكمة لا تحدها الحدود، لأن آل عبد الحكيم كلهم كبارات البلد وابن شيخ البلد لا بُدَّ أن يكون أكبر من الجميع، لكن حافظ اشتعل قلبه بسيدة، تقصى أخبارها، وعرف أين تمضي اليوم، وهنا قالت "كان بيعمل نفسه بيذاكر تحت الجميزة ولحظة ما آجي ناحيتها، يرميني بالتين، أبوك برضوا ماكنش سهل، لكنه حنين، يملأ لنا أطشات الماء، ويهز لنا أشجار التوت، والجميز. يقطف من دوارهم عنبًا وخوخًا وتفاحًا، ويحضره لي، هنا في المكان نفسه".

كانت تلك الجميزة شاهدة على غراميات بريئة، وحتى حين أراد حافظ أن يتنصل من البراءة ويمد فمه ليتذوق سيدة، كان بريئًا، أخبرها أنه يشتم فيها رائحة النعناع حين تتعرق، كأنها الأرض أو ابنتها: "كان شاعر بالفطرة، يطلع الجمال من الهوا، ويدوب القلوب زي البغاشة".

كانت الحكاية قد وصلت حين درج حافظ الثانوية، ودخل أمين الخولي، وكان لا يزال على علاقته بسيدة التي أصبحت امرأة كاملة، وشعر أنه يلاحظها بشكل مختلف، ففاتح أباه في موضوع الزواج بها لكنه خيب ظنه لأنه أخبره أن أبناء المدارس لا يتزوجون قبل أن ينهوا تعليمهم. وأن سيدة هذه حتة بهيمة، لا تليق بابن إبراهيم عبد الحكيم، ولا تليق بمستقبله. وهنا بدأت إرهاصات الشقاق، وقبل أن تتزوج سيده من حمادة صلصة، صاحب محل الكشري، وقبل أن يخطبها ارتمى بجانبها جوار الجميزة، أراد أن يفترشها، كانت تقاومه، وشعر بأنه على وشك أن يكون حيوانًا، لم يصارحها بما أخبره به أبوه، لكنه شعر بأنه ينتقم منه في جسد تلك المسكينة، وحين حاول الاقتراب من ثديها، حدث ما لم يتوقع، انبثقت منه نباتات مختلفة في وجهه، شعر معها بإعياء شديد ثم ارتمى على صدرها، منهكًا: "فاضت روحه إلى بارئها مجددًا".

لم تكن سيدة تفهم الأمر حينها، لكنها فزعت من النباتات التي نمت فجأة على جلدها، وأخذت تنتشلها في فزع حتى جرحت صدرها، ولم تكن تعرف كيف تتصرف في المصيبة التي وقعت فيها، سوت ملابسها تركت حافظ كما هو، وهربت إلى البيت تتحسس طريقها: "رجعت البيت كأن ما حدث كان حلمًا، نمت بعمق، والصبح انقلبت الدنيا على

أعقابها، حافظ لم يعد للبيت، وعادت قصة ضياعه القديمة للطفو على سطح القرية، وترددت الأقاويل القديمة بأن حافظ ابن الشيخ إبراهيم عبد الحكيم مسحور".

لكن في عصرية اليوم ذاته، والقرية مشغولة، بالبحث عنه، سمعوا صوت مزمار، وطبل بلدي قادم من عند المقابر الشرقية، ودراويش يرتدون البياض ويمشون أمامهم بتثاقل، يؤرجحون رؤوسهم لليمين وللشمال، يتقدمون ناحية دوار الشيخ إبراهيم، وخلفهم حصان أشهب يركبه شيخ قصير يحمل أمامه على السرج حاظ راقدًا على ظهره بعوده الكامل. قال الناس إن القيامة قد قامت. وذاعت إشاعات بأن طيف الشيخ الأنصاري أحضر حافظًا من بين الأموات، وأنه ولي من الأولياء، لكن في لحظة مرور الموكب لم يجرؤ أحد على الكلام كأن المشهد أخرسهم جميعًا، وقالوا إما أن العالم سينهار، أو أنها بشارة حسنة، أو نذير شؤم على دار الشيخ إبراهيم عبد الحكيم.

حين نزل الشيخ الأنصاري من على فرسه أنهض حافظ، وتركه أمام البيت ورحل الموكب كما جاء.

تنهدت سيدة وقالت: "تغير كل شيء، أصبح أبوك رجلًا آخر، تعلق بي أكثر وكنت أخاف القرب منه منذ ما حدث، أما بشأن ما نما من صدري، فلم أجد له أثرًا حين استيقظت، وفي يوم قبل المغيب جاءني أبوك يلهث، أخبرني أن حلم البشارة

قد أتاه، لم أفهم مقصده، كنت أود أن أخبره أنهم سيخطبونني وسيزوجونني وأن عليه أن يتصرف. لكنه حين أخرج يده من خلف ظهره، وأراني أظافره الطويلة والمتشابكة وقد نمت بينهما زهرة صغيرة، كدت أتقيأ وتناسيت كل شيء، ولحظة ما دخت حتى أوشكت على السقوط، أسندني، وأراح ظهري إلى الجميزة، وقبلني في فمي، ثم تركني ورحل، لن أنساها طول عمري يا ولدي، طعم الحب في الفم مبيتنسيش".

صمتت قليلًا فتساءل عمر: "وبعد كدا؟" تنهدت وقالت: "ظل ذلك يتكرر أكثر من عام، يضيع ويأتي به موكب الدراويش يزفونه بالطبل البلدي، في الفترة دي بدأت المشاكل الكبيرة".

لم يغفر له المشهد الطويل المتكرر عند أبيه ولا زفة الشيخ المقدس بدراويشه وحصانه الأشهب، لأن حافظ أراد أن يصبح مغنيًا، كان يأتي لسيدة، بشرائط محمد منير بشكل دوري، ويغني لها بصوته العذب، عن الشاب الذي يشبهه ويغني بقلبه، عن الطير والحيرة، والحياة، لكن كل ذلك انقطع بزواجها مكرهة: "وصلتني تلك القصة على ألسنة الناس، حين أراد أن يغني علنًا، وكان يا حبة عيني يعيش بالغنا ويغني زي الكروان، لكن سيدك كان قاسي، وراسم له حياة تانية، قرر يغني، فراح مع صلاح جبر وفرقته لفرح في البندر، وغنى لفايزة أحمد "أنا قلبي لك ميال" كان بيغنيها لي فكنت أدوب فيها وفيه، المهم سيدك، ليلتها قفل عليه الباب وحلف ما هو

بايت في البيت، وساعتها غادرنا أبوك ومحدش سمع عنه حاجة، كنا كلنا منتظرين يرجع زي ما اتعودنا، لكنه مرجعش أبدًا". انتقل إلى المدينة وعاش هناك، بمفردة، تخفى عن الناس، ووظفه أحد المعارف دون أن يخبر أباه نزولًا عند طلبه. كانت حياته في أشمون قاسية، وتعجب من أن يكون هذا هو المصير الذي أراده له أبوه، أيام قاسية ووحدة في وسط عالم كبير، يمشي فيه مثقلًا ووحيدًا، في الصباح يذهب للعمل، وفي المساء تنهشه الوحدة فيمضي الليل ماشيًا حتى ينهار. سألها عمر: "وقصة الأنصاري إيه علاقتها بأبويا؟".

فابتسمت وقالت: "دي حكاية أخرى كبيرة، لكن متقلقش سيدة تعرف كل شيء، الأنصاري هو شيخ جاء إلى هنا وعمر البلدة منذ زمن، وكان رجلًا صالحًا، أحب الحياة فأحبته، وقد صار قطبًا من أقطاب الصوفية، قليلون من يعرفونه من العوام، لكن أهل الطريقة يشهدون له بكراماته. يعصر العنب من الشجرة، فيسقط الخمر في أفواه المريدين، يغني وينشد للخيام فتطرب له الحياة. يقولون ليس له عمر معين، ولا أحد يعلم متى وكيف مات، بعضهم يحلفون ويقسمون بأغلظ الأيمان أنه مات شابًا. وآخرون يقولون إنه يعيش للأبد، وجميعهم يتفقون على أنه كرس آخرته في دنياه بأمر من الله بأن يستقبل على عتبة المقابر كل من كُتب عليه الموت صغيرًا، ليسأله عن مقدار حبه للحياة. إن أحبها كأبيك يعيده"

وهنا قالت: "أبوك كان محبًّا للحياة لذلك كلما مات عاد، ليختبر شيئًا جديدًا كان قد نسيه، هذا ما قاله لي، وحين سألته عن إحساس الموت، قال: "حلم طويل، كانت المرات الأولى تثيرني بالذعر، وكأني ربما أموت داخل موتي، لكن في النهاية تعرف أنه شيء ينبع من الداخل، مثله مثل الحياة، أراه ينمو داخلي كزهرة تتفتح لتثمر برتقالة مليئة بالحياة وتبعث الدفء. فبعد أن يشق الشوك أبواب صدري، تخرج نبتة تستكين في الخارج وينتهي كل شيء. هذا هو الموت، لكني أعود كأني نسيت شيئًا مهمًّا عليَّ أن أعيشه بعد". وبعد ما حكى لي قعد يسخر من كل شيء، كيف سيصبح عمدة أحمق كأبيه، وكيف سينجب أولادًا بالعشرات ليثقل كاهله وكاهل أبيه الأحمق كان لا يستطيع التوقف عن السخرية كأن ما يحدث لم يكن بمأساة، وقال لي يومًا: "كل شيء سيئ يا سيدة، لكني لا أستطع التخلي عن السخرية".

عندما ألحقت سيدة قصة الأنصاري بقصة أبيه حاولت لضم الخيوط مجددًا، وقالت "يقولون إن الأنصاري انقطع عن الناس ولم يكلمهم واختفى، ودا اللي خلاهم يقولوا إنه مات، لكنه كان بيرجع باستمرار، لكن الناس قالت إنه مجرد طيف لرجل مبارك لا يكلم الناس".

تنهدت سيدة، بعدما أتعبها الحكي، ثم نهضت وقالت: "بعد ما مات جوزي لم أعد أتذكره حتى الأولاد نسيتهم، أما حافظ فلم أنساه أبدًا، هو دايمًا بيرجع وأنا في انتظاره".

لم يكن يدري عمر أيشفق على أمه أم على سيدة، لكنه وزع الشفقة عليهما بالإنصاف. وحين تأبطته عائدة به إلى حيث الجامع لأن الوقت قد تأخر قالت: "يا ابن حافظ افتح عينك على كل شيء، وقلبك لكل شيء، أنت سليل النعمة المباركة".

فقال: "أنا شايف كل شيء وسامع كل شيء".

ضحكت وقالت: "بس ارهف السمع كدا، تحسب أن هنا قرية من الأموات؟".

وحين أرهف السمع، وركز بصيرته؛ أضاءت أمام بصره مصابيح صغيرة داخل البيوت، ورأى أشباحًا خلفها تتحرك، أصوات أناس يتحادثون وصوت ضحكات يتعالى، ودفء نار تُوقد من بعيد يشتم دخانها، كأن الحياة دبت في المكان فجأة، وقالت باسمة: "لا فرق.. حتى الأموات يعيشون!".

وتركته عند باب الحارة المفضية إلى كوبري النعناعية بعدما قبلته على جبينه، بمحبة تكنها لحافظ وحده. وانصرفت مع الزمن الغابر الذي خلفها وطواها في عمق الليل، وحين أفاق عمر لوحدته رحل متلمسًا طريقه، لأشمون، وصوت المرأة في رأسه يدور بحكيها ويردد قول أبيه أن الموت حلم طويل، وليلتها لم ينم.

## "ذكريات أكثر بعدًا لا تصلح للبدايات"

كان ذلك في عام الحداد الأول، قبل التسليم الأول بأن أباك حافظ إبراهيم قد مات. حين عدت من سمادون فاقدًا الأمل، ذهبت إلى أمك تخبرها أنك، تخشى أن تعلنه ميتًا، نظرت إليك في شفقة وقالت: "عندي لك حل وسط، اعتبره موجود هنا".

وأشارت إلى قلبك. لم تفهم الأمر على أنه محاولة تطيب خاطرك، بل رأيتها على أنها محاولة منها لتبث اليأس في صدرك بشأن عودته، وحين قبلت رأسك أدركت أنها تحاول إخراجك من مأساتك لتتجاوزها، والآن وفوق سرير الذكرى تدرك أنك لم تنصت، لأنك تغرق الآن حتى أخمص قدميك في وحل الحزن والمأساة.

تلك الفترة أطول مما اختزلته ذاكرتك في لحظة التذكر هذه. تشعر بأن الغرفة تضيق عليك، ثم ها أنت ذا تتذكر

إيمانك بموته في العام التالي ليقتحمك فجأة شعور مباغت بأنك كنت منذ لحظتها عاريًا.

يخبرك يوسف أن الأمور تكون هكذا في البداية ثم تعتاد. تعتاد النوم، بعد أن يزول الدفء من قلبك، وشدد على قوله بأن الموت علينا حق، لكن تتساءل عن ذلك الحق معترضًا وقانطًا: "كيف يُفتح بابي فجأة، وكيف أنصرف عن العالم فجأة لأترك ورائي جيفة تتعفن؟ وما جدوى وجودي أصلًا إن كان الأمر بتلك السهولة؟".

يقينك بأن هناك قيمة لتحققها هو ما جعل العالم متماسكًا أمامك، إيمانك ذاك أخذ ينهار ومعه العالم. انهار كل ذلك حين علمت أن من الممكن أن ترحل أنت أيضًا دون أن تحقق أي حلم، أو أي قيمة في هذه الدنيا.

ذلك الانتقال المفاجئ في التفكير نشب في صدرك فجأة، حين ترسخت في قلبك ظنون أمك كيقين ثابت، أنه مات، أو قُتل، فتغيرت نظرتك لأبيك، أنه ليس ظالمًا بل مظلومًا، تتذكر أن تلك النظرة أراحتك. ربما تعبت روحك من مساءلته؛ لذلك تنتقل لمساءلة القدر، لأنه بالطبع المسؤول الأول والأخير عن موته. يصيبك حزن طويل وتشعر بوحدة رهيبة كأن خبر موته لم يكن منذ سنة، بل كان بالأمس فقط حين استسلمت للفكرة. تشعر بالموت يراقبك من قرب، ينظر إليك في عينيك، أنه سيضرب مجددًا، وربما

تكون أنت التالي. وتشبثت بحكمة يوسف الذي قال لك وهو يربت على كتفك: "اصبر؛ فالزمن يداوي كل شيء".

لكن قلبك أخبرك أن كل ما حدث مقدمات صغيرة يتبعها النبأ اليقين، لكنك لن تكون هنا لتعرف أنك كنت على صواب بشأن موتك.

ثم مر الزمان ونسيت رحلتك إلى سمادون وحكايات سيدة للأبد. ألقى الموت بظلاله مجددًا على حياتك وحياة أمك لرحيل أبيها، فانتقلت للعيش وابنتها مع أمها ليؤنساها في وحدتها، ولم تتأكد صحة قول يوسف، وهو كذلك كف عن نصحك، واكتفى بالتربيت على قلبك واحتضانه، وقال لك قلبك إن الزمن حين يمر مجددًا سيمر كما يتفق مع ما يُشاع عنه للأبد، وبما يضاهي سوء سمعته في شوارعنا وحوارينا وأزقتنا وحتى مدينتا الصغيرة بأكملها، إنه يعمق الجراح فقط ولا يداويها!

هل بإمكانك تأريخ تلك العلاقة الفريدة مع الموت؟ وإن كنت قادرًا فلعلها تسبق ضياع أبيك، لكن ما تتذكره جيدًا، أنك بدأت تلاحظه في كل مكان. تشتَمُّ رائحته.

وتلقيه كمزحة صغيرة وسط الحديث، أو تعبر عنه بعبارات سوداء تضايق الحاضرين حولك، وتحيط الجو بأبخرة المأساة الثقيلة، تتذكر جيدًا جولتك الصغيرة مع سيد إلى "أبو غالب"، حيث مصانع الطوب تطلع بمداخنها الأزلية.

تتفقان أن يعطيك سيد سيجارة تحاكي بها إحدى مداخن مصانع الطوب في البر الشرقي للنيل، تركب خلفه الفزبة البيضاء، وتتجهان من العزباوي إلى أبو غالب، وتنزلان سهلًا طويلًا من التراب، بجوار أرض يبورونها، ومن أمامكما يتحرك النيل العظيم بحرية، تنزلان من الفزبة، ويركنها سيد بالقرب من المعدية التي تتجهان نحوها الآن، يناولك سيد سيجارة ويخبرك بضحك: "خد جرب".

تشعل السيجارة، هي سيجارتك الأولى، كنت محظوظًا بالمشهد، تستنشق دخانها الثقيل وتزفر بعمق، ثم تردد "أنا حر" تقترب أكثر من المعدية، وتقف مشاهدًا النيل الأبدي يغسل الضفاف، ثم تردد مجددًا "أنا حر" وما دار في بال سيد حينها، لا يعلم به سوى الأولياء والقديسين، وهو أن عمر حافظ سيلقي بنفسه في المياه تحت دافع لا يعلمه سوى الله وحده، فيقترب منك مسرعًا ليسألك: "رايح فين يابني انت".

ترد: "هنروح البر التاني عوم".

ينسحب سيد، ويتساءل ضاحكًا: "عوم؟! يابني دي سيجارة سوبر مش حشيش. عوم؟! إنت اتجننت!".

ترد في غيظ: "إنت ابن وسخة جبان".

ويصمت كلاكما، وتعود تنظر إلى النهر وتتساءل عما يدفع الناس للصبر على الموت. تتجه ناحية سيد، وتسأله

بفضول: "تفتكر هتعيش ازاي لو أبوك مات؟" تتذكر ذلك السؤال المباغت الذي طرأ على صدرك فجأة، ولا يدري الدافع الذي كان خلفه حينها، لكنك تتذكر أنه كان نبوءة من نوع ما لم يصدقها قلبك حتى الآن.

ينظر إليك سيد باستغراب، "قصدك إيه؟".

الغيوم تتألق على صفحة السماء، أما الشمس فعلى وشك الرحيل، وتتابع نسمات الخريف، تدفع دخان مصانع الطوب للسماء، وعمر الذي رأى نفسه حينها مدخنة طويلة تناطح السحاب، وتمخر عبابها في الجو، ربت على كتف سيد، وقال وهو يخرج أنفاس السيجارة بتلذذ: "قصدي تخيل، مجرد تخيل صغير، أنا مش عارف المفروض أعيش إزاي في الحالة دي وإنت؟".

تناول سيد الشهير بفريسكا سيجارة عمر وأشعل منها سيجارته، أخذ نفسًا عميقًا، ونفثه ببطء وقال بصوت يختنق بالدخان والحيرة: "معرفش!".

صمت ثانية ثم سحب نفسًا ثانيًا، وقال وهو ينفثه: "يمكن هسكت، هسكت كتير فشخ وقتها، لحد ما أكتشف شيء تاني أعمله".

ثم تابع: "أنت عيل كئيب وسنين أهلك سودة، بقى أنا جايبك هنا عشان أبسطك بالبحر والدخان وإنت موراكش غير سيرة الموت".

أشار إلى السيجارة، وقال: "خسارة النعمة دي في جتة أهلك".

أشاح عمر بيديه مازحًا، تركه وذهب ناحية المياه الجارية، أراد أن يلقي بنفسه، تحت رغبة ملحة في غسل جسده، وربما ذاكرته، لكنه لم يفعل مخافة ان يورط سيد في شيء أكبر منهما، ليته كان يوسف، كانا سيسبحان كالعادة.

يتذكر أنه تراجع، انسحب ناحية الفزبة وأخبره: "يالَّا نرجع قبل ما الدنيا تليل علينا".

فقال سيد مستغربًا: "بالسرعة دي! لا طبعًا".

اتجه سيد ناحية الفزبة هو الآخر، أدار محركها، وأركب عمر خلفه، صعدا المعدية، بعدما غمز عمالها بثلاث سجائر، كتمسية وحق ركوبة مجانية، وحين اكتمل عدد العربات على المعدية، تحركت، ونزل الركاب من كبائنهم يشاهدون المياه، التي تبتلع قرص الشمس في الأفق البعيد. كان عمر مستندًا إلى قضيب معدني بكلتا يديه، ويميل برأسه ناحية المياه الجارية حين أخبره فريسكا بنبرة حكيم لفحته الشمس: "أنا يمكن مفهش في الاكتئاب والموت يابن عمي محفوظ، واخد بالك؟ لكن بص للبحر وشوف المَيَّه إزاي بتجري وبتعدي، أهو الحزن والدنيا كلها كدا زيه بالظبط هتعدي واخد بالك؟".

فقال عمر: "أيوا واخد بالي، بس دايمًا الكلام عن الحزن أسهل من إنك تعيشه".

لكزه فريسكا: "ما إنت اللي ابن مَرَة مصمم تعيشه، حد قالك تعيش الحزن يا بتاع إنت؟!".

كنت تحسده على حياته السهلة، أفكاره المنطلقة، حتى حين وصلتما، إلى البر الآخر، أخرج ذكره، وتبول في النيل، ضاربًا بعرض حكمته المؤقتة عن الزمان الجاري عُرض الحائط، وبالطبع لو كنت ذهبت لتسأله عن ذلك؛ لأخبرك بأنه على استعداد لأن يبول في فم الدنيا إن هي أجبرته على الحزن يومًا.

تتذكر ضحكه جيدًا وأنتما عائدان بالفزبة، وهو يغني الدنيا ريشة في هواء، سيد الذي ضرب ثلاثة رجال مثل البغال في الليلة التالية لأنهم أخرجوه من حوش المقبرة، بعد أن صمم على أن يدفنوه مع أبيه حيًّا، من كان يعلم أن بداخل فتى صلب مثله طفلًا بهذا القلب الصغير، أو بأن خلف ذلك المرح حزنًا كامنًا، وبكاءً لم ينقطع ونواح امرأة ثكلى ضربه عليه أحد أعمامه لأنه بدا مثل النساء، ولم يستطع الوقوف معهم ليأخذ العزاء، وعمر الذي سأله سؤاله ذاك النهار فجأة، اختفى من حياة فريسكا للأبد، لأنه علم أن فريسكا لن يسامحه على النبوءة مهما حدث.

وأخذت الأحداث تسير، جنازات لا تنتهي، وعويل ما يكاد ينقطع حتى يتصل ببكاء ينهمر ويكوي القلب؛ فحزن الأمس يتصل ببكاء اليوم، والحياة بالنسبة لك باتت سيرة لا تنتهي عن الموت والبؤس والضجر، فلم تتسع أشمون لحزنك، ولم يتسع صبر أصدقائه لكآبتك، وهجرك من هجر، وابتعدوا عن أبي النحس المتشائم حتى لا تصيبهم نازلة، لكن يوسف وحده أصر أن يبقى.

## "تبتعد مثل رجل يجر حزنه"

في تلك الفترة العصيبة من العام الثالث تقرر الابتعاد عن أشمون فترة الدراسة. تخبر يوسف أنك ستسكن في شبين الكوم بجانب كليتك حتى يتسنى لك نسيان كل ذلك، ورغم أن يوسف حاول إقناعك بأنك ستغرق في وحدتك، وأن تلك الوحدة لن تفعل شيئًا سوى مضاعفة حزنك؛ فإنك كنت مصرًّا أن تؤجر أستوديو في البر الشرقي في شبين الكوم وتسكنه بمفردك، تحاول إقناع نفسك أنك بوحدتك ستأخذ خطوة جيدة لبدء حياة جديدة في مكان جديد. تتذكر بدايات تلك السنة الفاصلة، وتؤرخ العمر بذكرى الضياع القاسية والرحيل العجيب، وفي أكتوبر تتساقط الأماني مع أوراق الشجر، ويرتعد جسدك بفصل كئيب بارد ولا يدفئك غير سجائرك التي أصبحت رفيقًا ودودًا. تجلس مع يوسف على رصيف محطة أشمون، تبحثان عن سماسرة، وشقق مفروشة قديمة، وأستوديوهات بأرخص

الأثمان حتى عثرتما على أستوديو صغير تملكه امرأة تُدعى زينب، ابنة مهندس ري في شبين، وتعتمد على سمعة أبيها في تأجير ممتلكاتها التي ورثتها عن زوجها الذي رحل على عجالة قبل أن يثقل كاهلها بأكثر من ابنها عبد الرحمن. وهذا ما قالته زينب بنفسها لك حين حادثتها للمرة الثانية، محاولًا أن تحدد ميعادًا لتمضي فيه على العقد. خصوصًا أن الدراسة كانت قد بدأت منذ أسبوعين أو أكثر، وحمدت الله أنك لم تتعامل مع سمسار، لأنك علمت منها أن السماسرة ترفع ثمن الإيجار، وتأخذ شهرًا إضافيًّا سمسرة، وقالت في أسًى مصطنع: "وإنت شكلك معكش إلا تمن الإيجار". ثم أخبرتك في حماس امرأة تعرف كيف تقنع زبونها: "وعشان خاطرك وعشان ظروفك الإيجار هيكون ألف جنيه بس، وزيهم تأمين". وحاول أن يلغي أمر التأمين وأخبرها مازحًا: "متخافيش على حاجتك يا أم عبد الرحمن، زي ما استلمت الأستوديو، هسلمه، بس مفيش داعي لموضوع التأمين دا لأن الفلوس اللي معايا يا دوب تكفي".

تعللت بجمعيات ومصاريف متلتلة، فبدأت تشكو أرملتها، وترك زوجها لها صغيرة، تخوض غمار حياة لا تعرف كيف تقتحمها كامرأة لم تعتَد سوى الدلال، لكن الحياة أصرت أن تذيقها ويلات لا قِبل لها بها، ودار بينهما حوار عن الموت جعلها تتساءل: "وإنت يابني لسه صغير على الحزن دا كله!".

فأخبرها وصوته يغرق في الوجوم عبر الهاتف: "وهو الحزن يعرف كبير وصغير؟".

قالت: "أيوا، لكن 21 سنة دا لازم يعيش الدنيا ويتجاوز كل شيء، يقتحم الحياة كدا بالذوق والعافية، وسيب الحزن دا لعمر تاني أكيد هتحزن يا أخويا متستعجلش أبدًا على الحزن".

وانتهى الحديث، على أن يتقابلا في السابع من أكتوبر، في كافيه زاوية في شارع المصنع في تمام الرابعة عصرًا ليمضيا العقد، ويشربا فنجاني قهوة، ثم يذهبا بعدها إلى الشقة ليشاهدها مشاهدة العيان، وهذا ما حدث بالضبط.

في ذاك العام كانت أمه قد عادت من عند أمها في المحلة، أخبرها بالأمر وكانا قد تحادثا عنه من قبل، شعرت بحاجته لتغيير الجو،؛ لذلك لم تمانع، ورغم أنها تخشى عليه من أن يعيش بمفرده، لكنه أخبرها أنه سيكون دومًا على اتصال بها، وأنه سيبحث عن عمل وسيحاول أن يشق طريقه في الحياة باحثًا عن معنى جديد لها متجاوزًا كل ما مضى.

تتذكر حين خرجت من البيت. اتجهت ناحية المحطة، أردت أن تتراجع، ولقاؤك بيوسف أمس على طرف ذاكرتك، ستفتقد جولاتكما الطويلة، وحكاياته العجيبة، ومضيت، ومصير الرجل في حلم يوسف الذي حكى عنه بالأمس لا يزال يشغل بالك، ويؤرقك. ومزقك شعور بأنك مقبل على

حياة لن تقدر على احتمالها. أردت أن تقابل يوسف في الحال، أن تشكي له، لكنك كنت تعلم بقلبك أنه سيرفض، سيقنعك بالبقاء هنا، لن تخبره بشيء، ستكمل ما بدأته، حتى لو كان ما بدأته مجرد رغبة في تعذيب نفسك في وحدة لن تحتملها، ستكمل للنهاية.

ونزل في محطة عاطف السادات. اتجه ناحية شارع المصنع سيرًا تحت الشمس الأبدية، وحين وصل للكافيه، وجدها بالداخل جالسة، كانت أصغر مما ظن، سيعطيها 32 سنة، اتصل بها حتى يتأكد من أنها الجالسة أمامه، ولما رفعت الهاتف أغلق، دخل ووقف أمام طاولتها، قمحي البشرة بلحية طويلة لم تشذب منذ أيام الحداد الأولى، فبدا لها صورة مطابقة لحزنه، سألته: "عمر حافظ؟".

فقال: "أيوا".

فمدت يدها لتصافحه وهي جالسة، فارتبك لحظات، ولما أدرك أن يديها معلقة في الهواء، صافحها، بسرعة كأنه يسرق شيئًا، حينها ضحكت وقالت: "مكنتش أعرف أنك متدين أوي كدا يا سيد عمر، فكرتي عنك اتغيرت من شكلك ودقنك، كنت فكراك 21 سنة لكني أديك دلوقتي 27 أو 28 سنة".

ارتبك رفع عينيه، وحاول فحص ملابسها وقال: "أنا لسه 21 بس هي دقني أما بتطول بتحدفني لقدام شوية، أنا كمان

كنت فاكرك أكبر، لكن ساعة ما شوفتك قلت دي صغيرة أوي".

ضحكت، وقالت: "يا سلام! ع العموم تشرب إيه؟".

فقال: "قهوة مظبوطة بن محوج".

طلبت له القهوة، وأخرجت العقود، وأخبرته أين يضع اسمه، وبينما كان يمضي كان رأسه غارقًا، في تفاصيلها، ملامحها بها مسحة جمال لا تخفى على عين، وجسدها جسد نضج بانتظار قطافه، لكنه حاول أن ينأى بأفكاره بعيدًا عن تلك الناحية، وحين انتهى من العقود، خرج يصورها من مكتبة صغيرة بالخارج. ولما عاد وجدها بانتظاره واقفة أمام باب الكافيه، وحين اقترب قالت له: "يلا بينا عشان تشوف الشقة".

احترق من داخله، وترآت له خيالات، خجل منها أمام نفسه، حاول مداراة ارتباكه، حاول الخروج من الموقف بأي طريق، فسألها: "المفتاح معاكي؟".

فردت بصرامة ووقار أطارا خيالاته من رأسه قائلة: "أيوا طبعًا".

حينها قال في لهجة حاسمة: "خلاص هاتيه أنا اشتريت، مش لازم أشوفها النهارده، أكيد وأنا بنقل فيها حاجتي هشوفها".

نظرت إليه باستغراب، تفحصته حتى بدا قزمًا أمامها، أخرجت المفتاح وناولته قائلًا: "مبروك عليك يا سيد عمر، حساب القهوة عليا".

فضحك عمر بعدما انزاحت الغمة، وبعفوية قال: "والمرة الجاية عليا أكيد".

فرددت مبتسمة: "اتفقنا".

حيته بوقار ورحلت، في طريقه للمحطة، شعر بأنه ورط نفسه بلقاء، آخر رغم أنها ستفهم ما قاله على أنها عزومة مراكبية، لكنه شعر بأن عليه مقابلتها مرة ثانية، وهو ما لن يجرؤ على طلبه أبدًا.

## "لأننا لا نجيد قول وداعـًا"

ما يزال الباب مغلقًا أمامك، الشباك جوارك، وكل شيء كما هو، لا شيء غير تداعيات ذكريات تمتلئ بالتفاصيل الدقيقة والشاقة التي ملأت يوم نقل أغراضك للأستوديو الجديد. رفض يوسف مصاحبتك، وتنصل من مساعدتك، لأنه رأى أنك تدق مسمارًا في نعشك، وأنك بتلك الطريقة لن تداوي أي حزن، بل ستغرق في وحدة لن تجد منها الخلاص. لم تذهب إليه، لا تجيد قول تعبيرات الوداع. حملت الحقائب منفردًا، وصعدت السلم في مشقة، وفرشت الملاءة على السرير كمحاولة وضع كل شيء في مكانه. كانت كل خطوة تخطوها هي محاولة جديدة للتنصل من ماضٍ حزين. وأول سيجارة أشعلتها في الصالة، لتضفي عليها رائحة من رائحتك، هي محاولة الغرق في تفاصيل العالم الجديد. الدش الأول الذي جعلك تتحرك في الشقة عاريًا وترتعش من البرد كأنك تستعيد لحظة خلقك الأولى وكأنك لم تُخلق إلا توًّا، كل تلك

الأشياء كانت مبشرة بأن الأمور ستسير للأبد على ما يُرام. والموت شبح يحلق بعيد جدًّا، بعيدًا عنك كأنه لم يكن موجود بالقرب على الدوام، وبعد عدة أيام مما يشبه الاستقرار، تقرر أن تعمل، تكلم أحد معارفك في شبين ليدبر لك أمر شغلانة تساعدك على دفع الإيجار دون أن تطلب من أمك. في بداية العمل لم يكن يفهم كيف تُدار أمور كتلك. استلم عمله في المطعم "كاشير". يعمل ليلًا من الخامسة إلى الواحدة بعد منتصف الليل، والمال يكفي ليسد الرمق، ومن حين لآخر تأتيه منحة من المنزل على هيئة طعام، وساعده ذلك على ادخار بعض المال. وبعد عدة أيام في العمل أدرك أنه فتح ذراعيه للحياة شبه متجاوزًا الماضي، وتحول الموت من تجربة عاش آثارها، إلى فكرة فلسفية غرق في تداعياتها إلى النهاية، يعي ذلك الآن، أنه ورغم رغبته في تجاوز الحادث؛ سقط في رحلة طويلة مرغمًا، لا يدري كيف ينهيها، مندفعًا بغير وعي ناحية الموت كقضية هي شاغله الأعظم، وحين يحاول الانحراف عنها فإنه، ودون إدراك منه، يدور حولها. وبعد العمل يعود إلى البر الشرقي ليمد شبكة علاقاته إلى عدة شيوخ طاعنين في السن لا يدري أكانوا يستوعبون وجوده أم لا. يجلس جوارهم دومًا على قهوة محفوظ يستمع لأحاديثهم وحكاياتهم، ويوسف الذي كان كل شبكة علاقاته لم يعد يلتقيه كثيرًا، وكان آخر لقاء بينهما في المجمع غريبًا ودار حول أحاديث أغرب، فيوسف يدرس الآداب، يهتم بالسينما مثل رجل أراد أن يفني عمره أمام

الشاشة الكبيرة، يملأ صفحته على فيس بوك وأستوديو الصور بكادرات مميزة لأفلامه المفضلة، يستمع لموسيقى تخصه وحده ويقرأ كتبًا لا يستطيع عمر حتى إعادة نطق أسمائها، ويحاول إشراك عمر في اهتماماته، ونجح على الأرجح في ذلك.

أما عما حدث ذلك اليوم؛ فهذا ما تتذكره جيدًا، خرجتما من مجمع الكليات، انطلقتما إلى إحدى الكافتيريات المجاورة للمجمع، التي تتشبع بضجيج لا ينتهي كأنها تحتفل بصخب العالم، جلستما في زحمة الكراسي الخضراء، ووضعت هاتفك على الطاولة وكذلك فعل يوسف، وطلبتما الطعام الذي لا يمكن وصفه، لكن تتناولانه احترامًا للجوع، وتحت ضغط أحاديث الآخرين تكلمتما، بعدما كان الحديث ينبع منكما سلسلًا، يقطر في أي وقت وحول كل شيء، وحين طال الصمت سألك يوسف: "تحسنت أحوالك الآن قليلًا أليس كذلك؟".

فقلت وفمك منشغل بالمضغ: "قليلًا، بدأت في عقد الصلح مع الحياة".

شعر يوسف بأن كلامه القديم قد جاء بفائدة، كما شعر أنه كان مخطئًا حين حكم على رحلة السكن والعمل بالفشل: "طبعًا، متعرفش أنا سعيد قد إيه بالكلام دا يا عمر، قولتلك الزمن بيداوي كل شيء، وقريبًا جدًّا تتخلص من انشغالك بمسألة الموت".

نظر إليه عمر وهو يأكل: "تعرف؟ أحيانًا أشعر أن المشكلة مش في الموت بقدر ما المشكلة في غموضه وإنه مجهول".

اعتدل يوسف في جلسته، وتحمس للفكرة وقال: "بالتأكيد".

صمت دقيقة، سرح في صخب المكان، لكنه لملم شتات نفسه وقال فجأة: "هقولك يا عمر، أحيانًا أحس الموت غير عادل، وأحيانًا أحس إنه عادل جدًّا".

التفت إليه، ترك الطعام وحاول الإنصات لدقيقة: "غير عادل لأنه غامض جدًّا، ومفاجئ جدًّا، وعادل لأنه موزع علينا كلنا، أحيانًا لما ألاقي حد يشاركني المشكلة باطمن، كأن القدر المشترك مهما كان قاسيًا فإنه قدر مشترك، بالطبع ستجد من يطبطب على قلبك ويطمئنك لأنك تشاركه المأساة نفسها وأنا لا أريد غير هذا".

انتبه إليه عمر جيدًا، حاول النظر في عمق عينه، لم يُفاجأ، فمن لا يخاف الموت؟! لكنه شعر بأن هناك شيئًا ذا أثر عميق في قلب يوسف، فلِمَ كل تلك الحيرة على وجهه؟

تابع يوسف: "الخوف من المجهول يا عمر، إيه بيحصل معانا بعد ما يتقفل علينا باب القبر، ضلمة بس، نوم ونعاس تقريبًا، واعتقدت منذ زمن أنه حلم طويل، رحلة طويلة لا تنتهي لكن لفين؟!

الموت فم يتسع ليبتلع الإنسان، والحياة أيضًا فم يبتلعه، سيان. لا أرى اختلافًا بينهما، الحياة مولد، والموت مولد جديد، ربما بذاكرتي القديمة وربما دونها".

خرج عمر فجأة عن صمته: "لكنك مقولتش رحلة لفين؟". شرد يوسف مجددًا؛ فعاد عمر لطرح السؤال حتى انتبه، تنهد وقال: "مش متأكد، المكان دائمًا مجهول، لكن بما إنه حلم؛ فهو رحلة لعالم الأحلام، أو لمنبع الأحلام نفسه، الرحلة نفسها داخل أعماقنا وحياتنا وكل اللي شغلنا دماغنا بيه". سأله عمر "بمعنى؟".

كان الضجيج يرتفع، لخروج الطلاب من المجمع، وهو ما كان يحول دون سماع بعضهم بعضًا بوضوح. كرر عمر السؤال، ولما لم يجد جوابًا من يوسف عاد للأكل.

ثم صمت كلاهما تنازلا عند طلب الضجة، وجاءت مجموعة فتيات شعر بهن عمر خلف ظهره، سمع أصواتهن، وتحسس حرارة أجسادهن، فهمس يوسف إليه: "ريهام خلفك، لا تنظر"، ولأنه لم يسمعه، ولأنه حين شعر بهن التفت تلقائيًّا؛ وقعت عيناه في عينيها الزرقاوين، ثم تنقل على جسدها متفحصًا بلوزتها القطنية الزرقاء، وجذبه يوسف بصياح وشد فعاد، غير مدرك ما حدث توًّا، فقال يوسف مندهشًا يفتح عينيه على وسعهما: "يا أخي لم ينقصك سوى أن تنهض فتعانقها!"، واحمر وجهه خجلًا، ولم يكن يدري

ينهض ليعتذر أم لا، وهل لاحظ من معها بحلقته فيها؟ وهل لاحظت هي؟ لا بُدَّ أنها لاحظت. حنى كتفيه وانكفأ على الطعام، وعاد يسأل كيف تنضج الثمار ولا تجد من يجنيها؟! أشعل سيجارة لينزع توتره، تفحصها، بيضاء ذات تاج أصفر، في مدح التبغ رغب يومًا ما في كتابة قصيدة.

تدخل الشقة، حاملًا معك علبة صغيرة في حجم كف اليد، مرتابًا في أمر نفسك، حتى حين سلمت على البواب، بدا صوتك أهدى من قبل ومتوترًا حتى قلت في نفسك "بلا شك ظنني مخنثًا أو أني على وشك ارتكاب جريمة".

صعدت، أشعلت سيجارة، تذوقتها، قماشية الطعم، أخرجت لسانك وتحسستها به، ثم نظرت إليها مطولًا، وخلعت ملابسك لتجلس في الشقة عاريًا بلا غرض، استحممت ثم طفقت جالسًا كما أنت، وبعدها أشعلت ثانية وثالثة، فانتشيت، وصنعت قهوة، وتطلب ذلك أن تشعل رابعة. وفجأة يدق باب البيت. تتوتر، ولم ترد، وكان هناك مفتاح يدور في باب الشقة، لكن لحسن حظك كنت تضع مفتاحك هو الآخر في الكالون، فلم يُفتح الباب. وحاول من في الخارج الدخول بكل طريقه. لم يتنفس، ولم يسمع له صوت سوى طرقه المتعدد. وبعد دقائق لا أكثر كان قد انتهى، فشعرت أنها هلاوس من أثر السجائر والقهوة، فانبسطت أساريرك، ودلفت لتنام ساعة قبل ميعاد العمل.

في اللحظة نفسها التي تداعبه الذكرى وقع ذلك الحادث فجأة: انتفض الناس وهب يوسف واقفًا يزدرد اللقمة في جزع، كانت الكراسي الخضراء فارغة، التم الناس حول أحدهم، سقط فجأة دون سابق إنذار، حاولوا إسعافه، صوت صيحات: "ماء، ماء، ماء".

ولم يستفق، أركبوه في سيارة زرقاء، وأسرعت خارجة إلى الشارع، ثم هدأت الضجة، واستعاد الناس بطئهم المعهود، وجلست ريهام، وجلس يوسف وقال: "رعب!".

رد عمر: "الموت بعينه. فجأة من اللاشيء".

شعر أنهما يتشاركان الخوف نفسه.

حينها قال يوسف فجأة: "تعرف جلجامش؟".

تابع يوسف: "جلجامش كان ملكًا على أوروك، هي مدينة قديمة من بلاد ما بين النهرين، كان نصف إله ونصف إنسان، وكان قويًّا مثل ثور، قرأت كتابًا يتحدث عنه، ويحكي قصته، لا أدري أهي قصة عن الصداقة أم عن الموت، لكن جلجامش ذاك بقوته ابتلته الآلهة بالصداقة، حين بعث له إنكيدو، وهو نصف إنسان ونصف حيوان، كانا يتعاركان في البداية، لكن حين علم كل منهما أنه ند للآخر، أصبحا صديقين، كانت حياتهما مليئة بالبطولات حتى أمرت الآلهة أن تبتلي جلجامش بموت صديقه، لا أحد يعرف لماذا انقلبت حياة

جلجامش؛ لوفاة صديقه أم لخوفه الشخصي من الموت؟ قلت لك جميعنا نخاف الموت حتى أنصاف الآلهة، ربما الآلهة نفسها كانت تخاف الموت؛ لذلك ابتدعت الخلود ومنحته لنفسها، وحرمت منه الجميع.

ذهب جلجامش في رحلات طويلة صعبة يبحث عن طريق للخلود، لكنه في فشل. وفي النهاية، وفي طريق العودة وجد امرأة أعتقد كانت صاحبة حانة أو نادلة، قالت له الآتي".

فتح يوسف هاتفه، وفتش فيه لدقيقة، ثم أخرج صورة لجلجامش أراها لعمر: "هو دا جلجامش".

وبعدها بدأ يقرأ عليه ما كتب فوق الصورة:

"إلى أين تمضي يا جلجامش؟

الحياة التي تبحث عنها لن تجدها

فالآلهة لما خلقت البشر،

جعلت الموت لهم نصيبًا،

وحبست في أيديها الحياة

أما أنت يا جلجامش؛ فاملأ بطنك

افرح ليلك ونهارك

اجعل من كل يوم عيدًا

ارقص لاهيًا في الليل وفي النهار

اخطر بثياب نظيفة زاهية

اغسل رأسك وتحمم بالمياه

دلل صغيرك الممسك بيدك

وأسعد زوجك بين أحضانك

هذا نصيب البشر في هذه الحياة".

فردد عمر: "هذا نصيب البشر في هذه الحياة".

وتذكر هنا سيدة، وحكاية أبيه، وقال ليوسف: "النساء يعرفن الحياة جيدًا".

كان يوسف ما يزال متأثرًا بالنص الذي قرأه، يعرف عمر أن تلك عادته، شديد الحساسية لما يقرأ، يملك في داخله قلب شاعر، حين يحدثه عن الشعر يشعر كأنه سيموت لو لم يقل ما يقوله، يشتري الكتب والدواوين باستمرار، يرصصها واحدًا فوق الآخر، يحفظها ويلقي قصائده كما لو كان فارسًا، لكن لمثله تقع المآسي، مثله الذين يحاولون العيش كفرسان، يختار الله أن يقتلهم بقلب شاعر.

نهض يوسف فجأة وقال: "مبسوط إنك تصالحت مع الحياة رغم كل شيء".

ابتسم عمر في سذاجة: "طبعًا، طبعًا".

"لازم أمشي عشان ألحق قطر 2".

"خلي بالك من نفسك يا يوسف، وخلينا نتقابل كتير". بعد العمل ذاك اليوم، ذهب لقهوة محفوظ، وسكن الرواد، وجلسوا يدخنون سجائر برائحة الملل، وبدوا كما لو كانوا يترنحون من الألم. سكارى من الحياة، ودراويش في مقام الدنيا. وقال الليل مداد، ورد خلفه مداد، دخن كثيرًا ذلك اليوم، وعدة فناجيل قهوة أصابته بإمساك لعين.

صار شبه معروف هناك لانتظام مواعيده. ويحترمه الكثيرون لذوقه الموسيقي التعيس، الرواد بعضهم مسنون ورجال في سن الرشد، نادرًا ما يأتيهم شباب، غير الذين يضلون طريقهم إلى الكافيهات المرموقة، والمزينة بألوان زاهية ولمبات ليد براقة تضوي من السطوع، روداهم يعشقون الخفوت في عصور ما بعد البريق وبينما كل شيء يلمع يحتمون تحت شعاع المصباح الواحد المعلق في سقف المقهى، أو تحت ضوء القمر الساطع وعمود إنارة بعيد.

يتدارون في جوف المقهى تحت صوت أحمد منيب، وهو عمر محفوظ الغريب صاحب الذوق العجيب الذي جاء من اللامكان لينشر تلك الموسيقى الغريبة على أهل تلك المدينة لكنها تمتلئ بدفء حقيقي يشعره كأنه في المنزل.

منهم من يعرف سيرة تلك الموسيقية، ومنهم من يسأل ولا أحد يكره، كان ذلك يروقه، يجلس جانب طاولة الشيوخ الدائمة يشاهد مباراة شطرنج لا تنتهي أبدًا، تتحرك فيها العساكر

منذ أن قال الله ليكن نور، ولا يدري أحد متي سيستريحون. القهوة مضبوطة وعلى الريحة، ومن يضاعف في السكر يكون من المنبوذين، أو يصير في مرمى حقد وحسد الشيوخ الذين أغلبهم مرضى بالسكري، ولا يتجاسرون على إضافة السكر ويبررون ذلك بأنهم اعتادوا المرارة، ليس لأنهم مرضى سكري، يبتسم في سره من خباثتهم، يريدون أن يباغتوا العمر، قال أحدهم وهو يمسح صلعته البراقة: "للمرارة سبع فوائد، لا نعلمها" ضحكوا في سلطنة.

في ذلك اليوم الغريب لم يأتِ الشيخ الأصلع، واتضح أنه الرجل الذي سقط في الصباح وقد مات، نعاه أصدقاؤه، لكنهم لم يتركوا اللعب. تدخل عمر فجأة، ليخبرهم أنه رآه حين سقط بلا مقدمات: "كنت هناك أتناول فطارًا في حالة عجيبة "فأجاب أحدهم وهو يمعن النظر في الرقعة، ويفكر مستغرقًا في النقلة القادمة: "شيء مؤسف، حزنت عليه جدًّا".

وترددت "الله يرحمه" تدور حول الطاولة، تعجب من سلوكهم وسألهم أن يعذروا تدخله في شأنهم: "ليس له عزاء؟ أود الذهاب".

قال الذي ينتظر دوره: "ما زال في المستشفى لم يُدفن بعد". تركهم يستمتعون بوقتهم وصوت الخال في المقهى يتردد مع إيقاع الطبل المنتظم:

يا مراكب النسيان

عدي في بحر اليوم

ما كنت يوم ندمان ولا عمري كنت بلوم

لكني قلب كتوم

يا وعديي ع الأيام

أخذ يهز رأسه بلا اكتراث، وتعجب من الشيخوخة، وقال إنهم مجرد مساطيل تاه الحزن عنهم، وتساءل متى يكمل له يوسف، موضوع الموت الذي هو رحلة أو حلم، وغاية تلك الرحلة ومصيرهم من بعده الموت، ورغب أيضًا من كل قلبه في أن يتعلم حكمة هؤلاء الشيوخ في استقبال الموت بلا مبالاة بالغة التأثير كتلك، فهذا ما لا يقدر عليه رغم كل شيء، وبعد دقائق جاءه صوت الأصلع يصيح: "عجايب!". اتجه بنظره ناحيته، حتى شاهد أحد العساكر ملقى على الرقعة ينتحب يبكي موت صاحبه.

## "كل لقاء كان بمنزلة وداع"

تتذكر ما بعد ذلك بجدية تامة كأنها إشارات، ونبوءات منفردة مثقلة بالمعنى رفقة الحيرة والألغاز. قبل الذهاب إلى المطعم بساعتين تفتح الشرفة وتقف لتدخن في حرية، وتتهافت الذكريات وتتدفق بلا نظام أو ترتيب، ذكريات سعيدة كحديث أبيك وأخرى حزينة كضياعه، ولو امتلكت القدرة على النسيان لاحترت بين أمرين: أن تنسى الماضي الحزين فتفيض نفسك بالسعادة القديمة، لكنك أدركت لحظتها أن الحياة ستغير عليك بحزن قاسٍ فينتهي بك الأمر كما هو الآن كأنك لم تنسَ أي شيء؛ فالحل إذًا نسيان الماضي السعيد، فتبدو الدنيا قاتمة حزينة على طول الخط؛ حينها لن تُفجع لما يصيبك الحزن. وربما الوسيلة الوحيدة للحياة أن تقنع بأن السعادة والحياة شيئان متلازمان، لكن لِمَ لا تشملنا السعادة على طول الطريق؟! وتلك الحجج بأن دون الأسود لن يكون هناك أي معنى للأبيض سخيفة ولا

تنطبق هنا؛ فالحزن ليس لونًا لكنه ألم مجرد، لا أريد أن أشعر بالسعادة، ولا أريد أن أشعر بالألم، وكان قلبك يحادثك بأن هناك مأساة على وشك الوقوع.

أشعل سيجارة ثانية كانت نوافذ العمارة المقابلة مغلقة، وانعكس شعاع الشمس على زجاجها البراق.

وبعد دقيقة أطل شبح شخص ما خلف النافذة كأنه يراقبه، لا يدري من هو، ولم يسبق له أن رأى شبحًا خلف تلك النافذة من قبل، بدا الظل كأنه مستغرق في النظر إليه، وظل واقفًا لا يبرح مكانه حتى ارتاب في أمره، أشعل سيجارة ثالثة، وقذفت عقب الرابعة على ذلك الزجاج لعل الشبح يتحرك، لكنه ظل في موضعه صامدًا، أغلق النافذة. خلع ملابسه، ليستحم، وحين اقترب من باب الحمام، سمع طرقًا على الباب، حسب أنه يهلوس، لكنه بالفعل كان صوت طرقات خفيفة حقيقية، نظر إلى الساعة القديمة المعلقة، كانت الرابعة، تبقى لديه ساعة على العمل، والباب يطرق، لم يرد كما المرة السابقة، ثم ذهب ليرتدي ملابسه، ودار مفتاح في باب الشقة فجأة، وصُعق للمفاجأة. أنه نسي ترك مفتاحه هذه المرة في الكالون، لام نفسه ألف مرة لأنه لم يغير الكالون منذ البداية، انطلق واختبأ خلف الثلاجة الموضوعة في الصالة على إثر تلك الحركة المباغتة، لا يتذكر أنه أعطى أحدًا نسخة من مفتاح الشقة، ولعن نفسه وسذاجته مجددًا

على عدم تغيير الكالون، كان متأكدًا أن البواب معه نسخة. وفتح الباب، وكانت عيناه تتلصصان تنتظران ظهور البواب على العتبة، لكنه لم يظهر، بل ظهرت زينب صاحبة الأستوديو، دلفت تبحث عنه، ولم تجده، ودار في رأسه مصيبته، وخاطب نفسه: "ستظهر عاريًا أمام أحد وخصوصًا سيدة لكن ما ذنبي، هي من فتحت واقتحمت المكان، وماذا تتصور في شقة شاب؟".

وزال الغضب والرعب من صدره؛ فكان مدركًا أن الأمر يمكن التعامل معه، وحتى لن يؤنبها، ودارت في رأسه خيالات جعلها لصق عينيه، وخرج، ورأته ولم تنصدم، ولم تسأله عن أي شيء أخذت تتفحصه، وصدرها ناهد، ووجهها غير مرتبك، لكنه بدا مستريحًا، لم يسبق له أن وقع في أمر شبيه، ولم يتخيله، لكنه شعر به دومًا، كأنه لا بُدَّ أن يقع، وها هو يقع، لكنه لم يكن يدري ماذا بإمكانه أن يفعل، تحركت أمامه كأنها لا تراه، أخذت علبة السجائر الموضوعة على الكنبة، جلست وأشعلت واحدة، ذهب وجلس كما هو عاريًا في مكانه. تفحصته في سلطنة عجوز دارت أمامها الحياة دورتها كاملة ولم تلتفت لها، أخذ يتفحصها بدوره، وقامت أغلقت الباب، دون كلمة، خلعت طرحتها السوداء وأنزلت حقيبتها البنية، ذات اليد الواحدة، وانسدل شعرها الأسود على ظهرها، فكت صدارتها، واقتربت منه كأنثى حقيقية.

صاح قلبه مندهشًا وارتجت أجزاؤه وانتصب ذكره دون وعي، كأنه يصيح لأول مرة: "كذا هي الأنثى إذا! فاللعنة لم أعش قبل تلك اللحظة!".

ونطق فجأة: "ليست لي أي تجارب"، وتلك كانت الكلمة الوحيدة التي قيلت طيلة اللقاء، قادته، كسته بلحمها، تذوقت كل أماكن اللذة، وطرقت بيوتًا لم يطرقها، ارتعد، دافئة ورطبة، لها ملمس كل الأشياء، نبض قلبه بعنف، لا يدري أي سماء استقبلته ولا أي سحابة امتطاها، ولا إلى أي ذروة صعدت أنفاسه، قطف من شفتيها، ومن صدرها كل ثمرة ناضجة، الصالة ضيقة لكنها كانت أبرح من قصور السلاطين، أخذت تقبله على صدره بإيقاع منتظم، الساعة أمامه على الحائط ينتظم صوت تنهداته مع صوتها صوت قبلاتها، ووقعها الرطب على صدره، تك. تك. تك. تك.

الإيقاع المنتظم للقبل يساعد عقارب الساعة على تمضية الوقت، انتهت، نهضت ثم اغتسلت، ارتدت ملابسها، وهو ملقى على الأرض وذهبت مثلما أتت وشعر برغبة جامحة في نوم هادئ يستعيد فيه ذكريات ذلك الجسد الذي فارقه توًّا... تساءل: "لِمَ غادرت بسرعة؟!".

لم يسألها متى ستعاود المجيء، أو سبب مجيئها الأصلي، ونهض فزعًا، حين أدرك أن الساعة الخامسة غسل جسده

الملطخ بماء بارد، ارتدى ملابسه في عجالة، أخذ سجائره، ثم ذهب للعمل.

كانت الأيام تمضى في سرعة عجيبة ودعة توعد قلبك بالمسرات، لكنك أخذت تشك في أن هذه الدفقات المتتابعة من السعادة نذير لشيء ما، وضاع رأسك في حزنه يبحث عن جمل واضحة كي يرثي بها نفسه، تتخيل خبر موتك كأنه حقيقة مثل حزنك، سيكون هذا هو الحزن الذي سيحرق قلبك، والقلق الذي يجعل من روحك تتآكل يومًا بعد يوم دون أن تعلم. وعلى الرغم من كل ذلك؛ تنتظر طرق الباب يوميًّا، وإن كنت أنت العابر على الدنيا فلِمَ لا تتصرف كالعابرين؟ كانوا أحيانًا يفعلونها في الصالة، في غرفة النوم، وفي كل مكان تقريبًا كطفلين كلاهما أكثر حماسة من الآخر، تنادي بأسام غريبة؛ قتلها التكرار، وتنوح بها حين يلجها بعنف، يشعر أنها تقع في رأسه لكن في مكان أبعد ما يكون عن ذاكرته، كانت تبكي أحيانًا حتى يضيع مكياجها ويسيل كأخاديد فوق وجهها، وكلما حاول أن يسألها عن الأسماء، وأسباب البكاء؛ تصبح الرغبة متأججة فيفعلوها مرة، ثم ثانية، تعتصره لتتركه بلا دماء، بل ضائعًا، وكل أسئلته متلاشية كأنه لم يكن شيئًا من قبل. في أحيان كثيرة، حين كانا ينتهيان مبكرًا، تشعل سيجارة من سجائره، تحادثه عن ابنها الذي وُلد وكبر ولم يجد أباه، أو عن حقيقة زوجها الذي ضاع فجأة، لما أخبرته أنه غاب مرة واحدة

منذ ست سنوات، ولم يعد حتى اعتبروه ميتًا، وأقاموا له جنازة وهمية دفنوا فيها ملابسة في كفن، وأُخذ عليه العزاء، كان يضحك ويقول: "يا الله، ما أكثر ضياع الأزواج هذه الأيام!". كانت لا تفهم سخريته، حتى حكى لها قصته المشابهة، ووحدة أمه من بعد رحيل أبيه، وعن ضياعه هو الآخر، لكنه بدأ يجد دفة الحياة الآن.

ما يفهمه الآن جيدًا هو أنها حين كانت تتحدث عن زوجها، لم تكن تفتقده كما كان يتصور، بل كانت تحاوله إفراغ نفسها منه، يتذكر ذلك الآن وهو يرى نفسه راقدًا على الفراش لا يستطيع النوم لأنه أصبح يرى زوجها شبيهًا بأبيه الضائع، يقف في أعلى الغرفة بوضع مقلوب قدماه على السقف، ورأسه لأسفل وعيناه تجحظان فيه، يشاهدهما في لهاثهما المحموم، يحاول أن ينكر وجود ذلك الزوج في واقعه، أراده أن يسقط من سمائه إلى جوف قبره وألا يزعجهما.

ثم طفق يفكر فيها، يشعر ناحيتها بمشاعر لا يستطيع أن يتبينها كاملة، تشبه الملجأ أو شيئًا دافئًا، لم يكن يعلم أنها باب يدخله، تشعره بالدهشة الأولى لامتلاك الأشياء، تساعده على العبور إلى عالم آخر لم يكن يدري معناه من قبل، يشعر أنه، وبسببها قد أصبح أكثر ارتباطًا بالواقع، ويخشى أن تتلاشى من واقعه فجأة، يعلم في دخيلة نفسه أن علاقة كتلك

لن تستمر للأبد، يجب أن يمهد نفسه لرحيلها المفاجئ، ربما يعود زوجها الضائع لينتهي كل شيء، ولتستعيد أيامها، ثم بدأ يشك في أمر نفسه، أنها لا تُعجب به، إنما تُعجب بأنها ما تزال قادرة، ورغم العمر والنزلات، على إثارة الإعجاب، تحاول أن تستعيد عمرًا فاتها، وهذا ما دار في رأسه: "ربما دخل كلانا العلاقة لمصلحته الشخصية، لكن الجميع يستفيد على أي حال، مصالحها تعزز مصالحي".

تقلب على الفراش حاول أن ينام، لكنه لم يستطع أبدًا.

تتذكر ذلك الآن، أن صوت الضحكات الساخرة جاء من المنور الذي تطل عليه غرفتك، وضعت رأسك أسفل المخدة، شاهدت صورتك صغيرًا تسقط من فوق جذع الشجرة، طيرانًا كان أم سقوطًا مباشرًا؟

لكن صوت الضحكات كان يصلك حتى في هذا الوضع أيضًا. يصلك ويختلط بالصورة القديمة لسقوطك. لو كان أبوك هو الذي سقط كان سيغني حين ترتطم رأسه بالأرض. لو كان يوسف كان سيضحك حتى ينخلع حلقه. وتتذكر سيدة، كم تشبه زينب في حيرتها وصبرها. كل ذلك والصوت لم ينقطع. خرجت للصالة، ثم الحمام، أغلقت الباب جيدًا، وشعرت أن أعصابك تنفلت، وكان صوت الضحكات ما يزال يصلك. ارتديت ملابسك، خرجت وأشعلت سيجارة وأغلقت الباب خلفك. حاولت أن تعرف مصدر الصوت، كانت الساعة

الخامسة فجرًا، لم تشعر بأن هناك صوتًا لكائن حي، نزلت إلى الشارع تمشي بمحاذاة الكرنيش حتى وصلت إلى عمر أفندي، لمحت عمال الغاز، وقد بدأوا في رفع سقالاتهم الحمراء على واجهات المنازل، لفت انتباهك بذتهم الحمراء المشتعلة، كأنها تحذر من لهب قادم. جُلْتَ حتى وصل إلى المرزوقي، وتسربت من فتحة صغيرة حتى دخلت إلى ما يشبه الجلسات الحجرية المطلة على النيل، جلست هناك شاردًا، حتى تشققت السماء وتسرب ضوء الصباح.

في الصباح عاد للمنزل بعدما ألقى نظرة أخيرة على عمال الغاز، وتذكر حكاية يوسف، وعمال الغاز الذين لا يكلون في حلمه وبدأت الرؤى تختلط وتتداخل، وتمنى أن يكمل له يوسف القصة يومًا ما، وهمس لنفسه: "سأقابله اليوم في الكلية وسأجبره على أن يحكها لي". يتذكر أنه لم يستطع النوم، وظل هكذا حتى ذهب للكلية كأنه لم ينم منذ سنوات، ولم يأتِ يوسف، ولما لم يستطع النوم في المحاضرات، عزم على ألا يكمل اليوم، ذهب إلى القهوة في البر الشرقي،، كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا، انتبه إلى صوت المنشاوي، يخترق رأسه: "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب".

اقشعر بدنه، شعر كأن أحدهم قد صفعه على وجهه، طلب قهوة دبل سادة، وتناولها حتى يفيق، وبعد ساعة، نهض ذهب للأستوديو، أغلق الباب. ارتمى على الفراش،

وصوت المنشاوي يدوي في رأسه، اتصل على يوسف يسأله عن سبب غيابه كان الهاتف مغلقًا، استشعر الخوف، حاول فعل أي شيء، وقرر أن يفتح فيس بوك، ويعطيه فرصة أخيرة، وكان يريد أن يبحث عن حساب ريهام، وحين وجده أرسل لها طلب صداقة، ثم عاود يراسل يوسف على واتساب، لكن الرسائل لم تصله، وفي الرابعة، طرق الباب، وفتحت زينب، دخلت كانت ترتدي عباءة، كانت منهكة، ارتمت على الكنبة الموضوعة في الصالة كخط فاصل بين حدود الأشياء، اقترب منها، صاحت: "متلمسنيش!".

ابتعد عنها، وهو لا يفهم أي شيء، وما زال يشعر كأنه يتمزق تحت رغبة النوم، ما زال يتألم من وخز داخل جمجمته يتنقل في كل مكان، ارتمى جانبها، أعطاها سيجارة، دخنتها في توتر، ثم تهالكت على الكنبة، وبعد دقيقة أخذت تنتحب، تركها، نظر إليها في رثاء، ولما طال بكاؤها، حاول أن يزيل يديها عن وجهها، فصاحت: "قولتلك سيبني!".

ابتعد ثانية، فتابعت: "بقالي يومين مش عارفة أنام، كل ما أغمض عنيا أشوفه قدامي، وكل ما أفتح عنيا أشوفه واقف قدامي".

تنهدت بصعوبة حاولت مسح دموعها بعدة مناديل ثم قالت: "أنا كبيرة وراضية عن اللي بعمله، لكن هو بيعمل فيا

كدا ليه؟ هل أنا الملامة؟ لما أترمي بالشكل دا، لما يسبني ست سنين فجأة، أبقى أنا الملامة؟!".

تجاهد لاستعادة هدوئها: "عاوزة أنام! مجرد نوم عادي لكني مش عارفة، مش عارفة أغمض عنيا من غير ما أشوفه قدامي، نفسي ينتهي يقع ويروح في ستين داهية أكتر ما راح".

توجهت إلى عمر بنظراتها: "ليه كل دا بيحصل؟!".

اقترب منها عمر حاول احتواءها: "الغياب حضور يا زينب، حضور كامل في الذهن، صاحبي قالي كدا، آمني إنه مات هيموت، آمني إنه سقط هيسقط".

حنت رأسها، نظرت ليديها، للخاتم الذهبي في إصبعها: "بالبساطة دي؟".

نهض وأشار لغرفته: "خشي نامي جوا وأنا هنزل الشغل، ممكن تغيير المكان يساعدك ع النوم، لكن زي ما قولتلك آمني إنه خلاص، اعتبريه وقع من السما في بطن قبره وانتهى".

لم يخبرها أنه يراه أيضًا، لكن في صورة أبيه، وأنه لم يستطع النوم منذ الأمس، لم يسألها، أتريد نسيانه في الأساس أم لا، لكن حين ارتدى ملابسة، وأوشك على المغادرة نادته: "ممكن نتكلم دقيقتين".

عاد إليها، كانت لا تزال جالسة على الكنبة: "أكيد طبعًا". فقالت: "أنا مش عاوزة أنساه، ممكن تقول مش عارفة، لما قررت أجيلك، كان عشان إنت شبهه، شبهه جدًّا يا عمر".

اعتدلت ونظرت للخاتم في إصبعها: "إنك تفتكر حد دايمًا دا مش بإرادتك أبدًا، دي حاجة بتقع فيها غصب عنك، أنا وقعت فيها ست سنين، لكن معاك بعد كدا حسيت إن ممكن، أطلع، وإن الموضوع بيبان بس كدا في الأول ملوش مخرج عشان أنا من جوايا كنت عاوزة ميكونش له، مخرج".

نظر إليها: "تفتكري مات واللا لأ؟".

قالت بغير اكتراث: "مات أو لأ ميفرقش؛ البعد زي الموت".

فسألها: "وإنت إيه موقفك من الموت؟".

فقالت: "بوابة كبيرة".

فعاد يسألها: "لإيه؟".

فقالت وهي تضحك: "معرفش، بس أكيد هنعدي منها وساعتها نبقى نشوف بقى".

نهض وقال: "والغموض دا مش خايفة منه؟".

فقالت: "ما الحياة قدامك أهه، كلها غموض".

ابتسم وقال: "ماشي، معاكي، بس الموت موت يا زينب، نهاية لكل الأحلام".

فنظرت إليه وتساءلت: "وإنت إيه أحلامك؟" وَجَمَ، وترك السؤال معلقًا في الهواء، لا يدري ما أحلامه، ربما توقف منذ زمن يعلمه عن وضع قلبه في أي حلم، ويعرف بالطبع السبب، يتذكر أنه لم يرد مطلقًا على سؤالها، بل نظر في ساعة الهاتف وقال: "أنا اتأخرت لازم أروح دلوقتي عشان الشغل".

وانسحب مسرعًا تاركًا السؤال يطوف في جوف الأستوديو، الذي تركته زينب بعدها بدقائق بعد أن عدلت مكياجها في الحمام، ومضت لبيتها لتحاول مجددًا مع النوم، ولتبحث في رأسها وقلبها عن حقيقتها، وحقيقة رغبتها في اختفاء زوجها وسقوطه من السماء.

في ذلك المساء، بعدما أنهى العمل، عاد للبر الشرقي، بعدما تجاوز كوبري مبارك، دلف لقهوة محفوظ، جلس جوار طاولة الشيوخ، وقد ضم طقطوقة صغيرة إليهم حتى يضع عليها محمد القهوجي القهوة، وحين كانوا منسجمين في مباراة شطرنج، جاء شخص غريب ذو شارب عريض كأنه خارج من إحدى القصص الخرافية، جلس بالقرب منهم وطلب "شاي سكر برا"، كان صامتًا طيلة الوقت، يستمع في إنصات إلى الصوت الهادر من السماعة يردد:

الوعد والمكتوب

نمشي سكك ودروب

ولا ينتهي المشوار

أخذ الغريب يتأمل الشارع، ونظر إلى السماء وتأمل النجوم، قال وهو يعيد نظره إلى الأرض ويمسك كوب الشاي: "يبدو إنها حتمطر الليلة".

رفع عمر حاجبيه مستغربًا وتوجه إليه بالكلام: "السماء أصفى من الحليب يا أستاذ!".

أمعن نظره في الكوب ورشف رشفة، وعاد ينظر إلى السماء، لم يعلق على كلام عمر، فتركه عمر وركز في النقلات التي أخذت تلعب تحت تلاحم الطبل وإيقاع صوت الخال في غمرة تأججه:

والليل في آخره نهار

بعد عدة دقائق كان قد تعرف إليه، يشبه أباه. الشعر الأبيض والشارب العريض المشتعل من المشيب، لم يستطع أن يستعيد تركيزه في الدور الذي لا ينتهي، كان أحد الشيوخ يلعب بالأبيض ناقصًا عسكريًّا، استعاض عنه بقطعة دومينو "الجهار". الجو مضطرب لكنه خامد مثل جمرة أسفل الرماد، الذكريات في قلبه، عقله يمرح بعيدًا عنه، وقلبه يتألم في إذعان لأمر القدر، وطافت به الذكريات، الذكريات التي

أخذت تلهو وتمرح. تلهو بسذاجة طفل يداعب قلبه بسكين، وأخذ يراقب الرجل، حتى اقترب منهم. وضع كرسيًّا، سلم عليهم جميعًا كأصدقاء قدامى، وصافح عمر مصافحة محبة، ابتسم في وجهه، ابتسامة ذات معنى، وتساءل عمر: "لِمَ كل ذلك الشجن؟ ولِمَ انسل كل ذلك الحنين من وجداننا وجداني ووجدانه؟!".

ونظر إلى قدمه، فإذا به حذاء أبيه البني الدافئ، ارتجف، وشعر ببرد يدوي في أسفل ظهره حتى وصل إلى رقبته، فكان كالمشلول، وانتحى جانبًا، وتركه ولم تواتِه الجرأة على النظر إليه مجددًا. قال له قلبه إنه هو هو لا غيره، يمرح خارج دوائر الزمان، أراد أن يسأله لِمَ فعل كل ذلك بهم لما غادرهم فجأة؟ وأين ذهب؟ ولِمَ هنا تحديدًا والآن يقرر أن يظهر؟! اقترب منه أكثر بغير إرادة، أدرك أن له حرارة الصيف الدافئة، شموس الكون في قميصه، تحرك عمر حتى صار يقف خلفه.

وضع الرجل كوب الشاي على الطقطوقة وهمَّ أن ينصرف، اصطدم بعمر الواقف، نظر في عمق عينه، وصاح قلبه: "عانقه!".

ضمه إلى صدره الواسع، تنهد، وبحار الدموع تتبخر، ليملأ الكون بخار الاشتياق الحار، أراد أن يسأله، ولم يترك له فرصة، غادر كما اعتاد أن يغادر وتركه مع الشيوخ، لم يلحق به. جلس في مقعده. لا طاقة له على البحث، كان يظن

أنه انتصر على غيابه، وتذكر جرس المنزل الذي اعتاد قرعه في وقت متأخر، وأحاطه صوته الدافئ، ظن أنه قادر على نسيانه، تذكر كلامه الأبدي عن أحلامه وآماله، ورغبته في أن يعيش شيخوخة هادئة مع رفاقه تحت ضوء القمر الباهر، وفي لحظة الشرود تلك وجد يدًا تربت على كتفه، كانت يد أحد الشيوخ، الذي سأله: "أتعرفه؟ هو هكذا دائم الحركة".

قال: "نعم".

صمت لحظات وقال: "لا أدري.. كان أبي في زمان ما".

ربتوا جميعًا على كتفه، وقال أحدهم: "نحن أيضًا لنا أبناء تركناهم، نحن هنا ننعم في هدوء الشيخوخة، حيث تركنا العالم والزمان".

قال أحدهم وصوته ناعس: "منذ أن عرفناه وهو هكذا ينصرف دون موعد ويأتي دون موعد، لا تؤاخذه".

طلبوا منه أن يحكي لهم حكايته، ولم يتأسفوا لحاله بالطبع: وقال أميزهم صوتًا: "لا تجزع يا فتى، العالم أكثره موتى، غدًا من المحتمل أن يغادرنا اثنان من الرفاق أو كلنا، لكن أخبرني كيف تمضي الأيام؟".

قال: "فقط أنجو".

فقال ساخرًا: "ومتى ستفكر أن تعيش؟ أحين تجلس مثلنا كالمساكين، تتداوى من السكري وتشرب قهوة دون سكر!".

صوت ضحكهم المكتوم، أشعره بأنه لا شيء، مرة أخرى يشعر كأنه لا حق له في حزنه الخاص، أراد أن يخبرهم بذلك، لكنه كان خجلًا، وبسوء أدب أخرج سيجارة، وأشعلها، فنظروا إليه، وقال ذو الصوت الناعم يحاول أن يجعل الحديث أقل حدة، وأن ينعم في مرحه، بالحياة والموت على السواء: "ناولني واحدة من سجايرك يا شيخ". فناوله سيجارة وأشعلها له، فنفث دخانها في السماء، وتنهد وقال: "هيه، كل شيء يتطاير ولا أسرع من العمر تطايرًا يا شيخ". وتابع: "كم امرأة أحببت، ها؟ كان يجدر بك أن تنفق سنينك هذه في مرح الحب وخيبة الأمل الخاصة، أن تعمر عمرك البائس بما يليق، لا أحد يسبق العمر بعمر إلا وعاش هَرِمًا أبد الدهر!".

بدأوا دورًا جديدًا، الأبيض يتقدم ينتشر على الرقعة بكثافة، والأسود منحصر في منطقته الصغيرة، يحاول فك ذلك الحصار الذي وقع عليه فجأة في لحظة غفلة. ضحك الأسود وهو يقفز بحصانه فوق حصار الأبيض: "باغت الدنيا هكذا يا فتى، راوغ العمر كما نراوغه، تحايل على الأمر، أصل هنعمل إيه في ستنا الدنيا؟ إدوهالنا كدا وعمرنا مكنا نختارها بالشكل دا".

وتساءل: وأين الحرية؟

وقال له قلبه إن الأحرار وحدهم هم الذين حين رفضوا المجيء إلى الدنيا لم يأتوا، أما نحن؛ فنحن الصاغرون! قال أحدهم: "أنا أخاف للعمر ينسرق منك.

وإياك ما تقول كلام عواجيز مخرفين يا ولد، والله ما كلام عواجيز، دا العمر والشعر اللي شاب".

وأمسك شعره الفضي بيديه وعيناه مشدودتان إلى الرقعة. فاز الأسود بحركة مباغتة لم تكن في الحسبان، وانتهى الدور نهضوا، وضعوا الحساب على الطاولة، وتناولوا علبة الشطرنج، وأعطوها لعم محمد كي يضعها في درج البنك، وغادروا مع أذان الفجر بثيابهم البيضاء كجوقة ملائكة تآكلت أقدامهم من التسكع في أراضي الجنان، وبدأ صوت التسجيل يصله، وانتشر صدى الطبل والنغمات إلى الدنيا كلها كأنها مناجاة طرحت في الهواء:

وكل شيء محسوب

إلا في أحلامنا

الوعد والمكتوب

لو كنت يوم مغلوب

العمر قدامنا

## "مجرد رجال سقطوا"

عدت إلى الفراش الدافئ، بعدما انقضى ليل قاس وتدفق النهار من ثقب في ضلفتي الشباك. حاولت النوم، لكن مع تدفق الأمل في قلبك ظهرت دوامات القلق والريبة. وبدأت تراه أمامك يسقط على الأرض، أباك أو الذي يشبهه، ارتطم بأرض الغرفة، فنهضت قلقا. كأن شيئًا أسوأ من هذا سيحدث، وفي رأسك تردد صدى الأغنيات:

الوعد والمكتوب

تقسى علينا قلوب

الوعد والمكتوب

جاءه صوت الهطول من بعيد، صوت ارتطام قوي رج صداه رأسه. نهض مسرعًا، فتح الشباك الذي كان في الجدار نفسه الذي يستند إليه السرير، وقال في نفسه: إن أباه كان على حق بالفعل أمطرت. وحين دقق النظر وجدها تمطر أوراقًا. هذا ما لاحظه بعد دقيقة مشككًا في حقيقة كل ما راه. ارتدى

ملابسه مسرعًا. نزل إلى الشارع، رأى الأرض ملطخة بدماء متجلطة أتت من ناحية كوبري مبارك، وأوراقًا صفراء ما تزال تتساقط. وحين وصل إلى الكوبري، تأكد مما كان في رأسه. لقد سقط الرجل بالفعل، سقط أكثر من مرة، كانت مئات بل آلاف النسخ منه، تتكوم فوق بعضها في أماكن شتى، عظام بارزة وجماجم مهشمة، وعظام أخرى متكسرة، وجميعهم أموات بابتسامة عجيبة وأفواه مفتوحة. والناس واقفون كأن العالم يستقبل معجزة بكر.

أشعل سيجارة، ونظر إلى كومة البشر من بعيد مغطاة بأوراق كانت ما تزال تتساقط من السماء حتى لحظتها. وحين وقعت ورقة فوق رأسه مباشرة قرأ فيها سطرًا واحدًا كان واضحًا، "فارضَ اللهم عن عبدك يوسف إسماعيل" كاد يُغشى عليه من الذهول، ودارت في ذهنه خيالات كئيبة، وحزن اقتنصه مجددًا، وهم ركب فوق كتفيه ودلدل قدميه، حاول ألا يدهس أيًا من الجثث، لكنه تعثر في واحدة، فسقط حتى تلطخت ملابسه بالدماء. ومشى مثقل الخاطر. ولما أوقفه أحد رجال الشرطة، لم ينتبه، فزعق فيه: "ارمي الورقة من إيدك".

وحين لم يستوعب، انتزعها من يديه، ثم ركله، كأنه مجرد جثة، جثة تفكر فقط فيما يكون قد وقع ليوسف. ولما شعر بأن كل ذلك يستحيل أن يكون مزحة، حث خطاه ناحية الكوبري عائدًا .

وبينما المكان يزداد ازدحامًا بالأشخاص سمع: "لم يبقَ منهم أحد على قيد الحياة!".

رد آخر: "كأنهم ملائكة في ثيابها".

وآخر: "شياطين الملائكة لا يسقطون من السماء".

أما هو فمضى مطبقًا فمه وقلبه على حقيقة أنهم مجرد بشر. نظر حوله كأنه انتقل لدنيا غير دنياه، وكان عمال الغاز فوق السقالات الحمراء، يلقون بنظراتهم إلى أكوام الرجال فوق بعضها بعضًا، لكنهم بعد دقائق عادوا إلى عملهم الأزلي لتركيب ودهان مواسير الغاز على واجهات المباني.

صعد إلى الشقة في دهشة الحلم، ظل صامتًا، وتذكر قول فريسكا: "هسكت هسكت كتير، لحد ما ألاقي شيء تاني أعمله غير السكات".

مر عليه وقت طويل وهو في جلسته، لا يشعر بأي شيء، يتذكر ذلك جيدًا أن الوقت كان قد اقترب من الخامسة، حينها استفاق على صوت طرق الباب، كانت هي، انتفض، لكنه لم يستطع الحراك، ليفتح لها، أدارت مفتاحها ودخلت في قلق وجلست، ثم تنهدت: "شوفت اللي حصل؟ من الصبح وأنا بحاول أتصل بيك".

لم يرد، ظل واجمًا.

قالت: "المرور واقف والناس متجمعة من الصبح، الدنيا مقلوبة في الأخبار، بيقولوا مطرت رجالة".

ثم قالت في صوت أقرب للفزع: "مطرت رجالة كلهم، نفس الشكل، شكل جوزي!".

اختنق.

سألها: "والورق؟ مشوفتيش الورق".

نظرت إليه في قلق: "يوسف هذا أصبح حديث الساعة، الدنيا مقلوبة عليه، لكن فيه مليون واحد اسمه يوسف".

رد بصوت مخنوق: "أنا متأكد.. أنا متأكد مليون في المية إن يوسف دا هو صاحب عمري".

نهضت وأشعلت سيجارة، لم تفهم الأمر جيدًا، اقتربت منه ناولته السيجارة في فمه، ونظرت إلى سقف الصالة، لتتأكد أنه لم يعد يراقبها بعد الآن؛ إنه قد سقط وتكوم للأبد، بينما كان يستنشق دخان السيجارة رغمًا عنه، بكى وقال وهو يبتعد: "حاسس بدوار شديد".

عادت لتجلس، ثم سألته: "إيه المشكلة؟".

صرخ في وجهها: "يوسف صاحبي مات!".

لم يكن يفهم حقيقة ما تفوه به، يتذكر أنه كان غائبًا كليًّا عن الوعي، بدأت أوصاله في الارتعاد، فعانقته كأم حقيقية،

ربتت على شعره، وأخبرته: "كل حاجة هتكون بخير". لكنه لم يلتفت، نزع يديها، ذهب لغرفة نومه مرتعدًا، أحضر هاتفه، نظر إليها مطولًا، وجد أربع مكالمات فائتة، منها، وعشرًا من أمه، نظر للهاتف مطولًا، طلب رقم يوسف، ظل يرن لكن في النهاية لم يكن هناك أي رد، توقف عدة دقائق لا يجرؤ على الاتصال بأمه، مضى زمن لا يتذكره، وهو واقف على باب الغرفة شاردًا في نظرته للهاتف وبيده، ثم رن الهاتف فجأة، رد دون، وعي قالت أمه: "عمر، عامل إيه يا حبيبي؟".

لم يرد.

فكررت: "عامل إيه يا حبيبي؟".

سألها: "يوسف صح؟".

بدا صوتها، حزينًا: "شد حيلك يا عمر، إنت راجل مؤمن". أغلق الهاتف فجأة.

ظلت تتصل لكنه لم يرد، جلس جانب زينب التي كانت تحاول أن تفعل أي شيء جاهدة كي تساعده أو تطيب خاطره، لكنها لم تستطع، ترك الهاتف يرن، دخل كي يغتسل، ارتدى ملابس أخرى بسرعة، والتقط الهاتف وأخبرها أنه سيذهب لأشمون قائلًا: "لازم أشيله فوق كتفي".

لم يستطع التجاسر، خرج وجسده يهتز قاصدًا المحطة، كانت حركة المرور مشلولة كليًّا داخل المدينة، اضطر أن

يذهب على قدميه، سيارات نصف النقل محملة بالجثث، ومراكب صيد في المياه، تحاول استخراج الجثث التي سقطت فيها، مضى تاركًا كل ذلك خلفه، حتى وصل لعمر أفندي، واجتازه داخلًا إلى الشارع المفضي للمحطة، كانت المحطة خالية، إلا من عمال الغاز، وهذا ما أدركه أنهم بدأوا في العمل بالمحطة؛ فالذي قطع له التذكر كان عامل غاز، والأمين الذي أخبره أن القطار سيصل بعد دقيقة كان عامل غاز يرتدي الزي الأحمر المألوف نفسه، بدا كل شيء كأنه يسبح على حافة المنطق، الغرابة تمزق الوجود، وتقسم ظهر الواقع لنصفين، ثم جاء القطار.

مرة أخرى في القطار، أخدود الدموع يشوه وجهه المعفر برماد الحزن، وتساءل قلبه: "يا سمائي الطيبة ألا يكفي هذا؟! ألا يكفي!؟".

وضاق صدره، يتذكر أنه رأى أن كل ذلك إن كان واقعًا فهو أمر مبالغ فيه، لا يمكن أن يكون سوى كابوس، وقال "لا بأس سأستيقظ بعد حين".

مات يوسف، لا يدري كيف، يتذكره أبديًا كالشمس، مليئًا بالحرارة والحياة، وفي رأسه تدور التساؤلات: "من كان ينظر في عينيه لا يصدق أن مثل هذا الشخص يموت في سن كسنه هذه، لكن القدر متفنن وذا ألاعيب مبهرة وأحداثه خاطفة، فقط لا تملك سوى أن تفغر فاهك الملعون لتبول فيه

الدنيا، وحين تظن أنك قادر على مراوغتها، تسقطك في خراء قوانينها الأزلية الباقية إلى أبد الآبدين، فما العمل إذًا؟!".

ربما كان يعلم أنه سيسقط في الموت مبكرًا؛ لذلك عكف على اختراع توسيه عادلة، أخبره بها يومًا في أثناء سيرهم يقطعان أشمون من شرقها لغربها: "رؤيتي للموت كأنه حساب وعقاب على كل صغيرة، مؤلمة"، وهذا ما كان يحاول إعادة فتحه في كافتيريا المجمع، لكن في تلك المرة سأله عمر: "وما المشكلة مع الحساب والعقاب؟ الوضع عادل جدًّا!".

فقال بصوت خافت بدا فيه الحزن والحيرة: "إحساس في قلبي أنه غير عادل، لكن أستغفر الله، فقط أتساءل عن الأحلام التي لم يأتِ دورها بعد، والأحلام التي لم تكتمل حتى الآن؟ إلى أين يذهب كل هذا الزخم بعد رحيلي؟ أريدهم أن يدفنوه معي كيما أستميت مرة أخرى في تحقيق كل ما رغبت به، لأجل لا شيء سوى ألا يضيع نبض قلبي في الخواء، لا أرى الموت سوى بداية جديدة، سنقع في أحلامنا إلى الأبد، ندور في تحقيقها، سنغرق في عمرنا الذي عشناه على الأرض في تفاصيله، وما امتلأ به وجداننا".

تنهد وأخذ نفسًا طويلًا حتى يملأ صدره بالهواء وتابع: "سنعيش في هذا الجزء الذي نخزن فيه الطموحات طيلة الحياة، تلك الطموحات التي تظهر برموزها في الأحلام

ستصبح واقعًا، أي أننا سنعيش في ما أقنعنا أنفسنا به طوال العمر، سنعيش في كل ما ترسب في أنفسنا من أحلام استعصت ورغبات كُبتت، أليس ذلك عادلًا؟!".

تنهد عمر حينها وقال: "عادل جدًّا".

فقال يوسف متابعًا فكرته: "الحياة الموت والنوم هم الشيء نفسه".

يتذكر أن رأسه انشغل بتتبع ذكريات كتلك في القطار، يردد في نفسه: "عادل يا صديقي، ربما أكثر عدلًا من الواقع، أكثر عدلًا من أن يحدث".

قطار السادسة إلا ربع لأشمون، لم يكن مزدحمًا بذلك الشكل يومًا من الأيام، قرويون وأقفاص حيوانات، وأشخاص خياليون أكثر من حقيقتهم، أحاديثهم ملعونة تشج رأسه نصفين، ترك العربة ودلف إلى أخرى كان الزحام فيها أقل، جلس على اليسار لصق الشباك، ليشعل سيجارة، وحينها لكزه الجالس أمامه: "امسح دموعك يا رجل".

ثم قال: يداعب شاربه: "شد حيلك كلنا لها".

نظر إليه وقلبه يخفق بعنف، وتساءل عن غرض ذلك الرجل، الخارج من مصباح سحري، لكن لم يكن للتساؤل متسع في صدره، عاد يجتر الذكرى، طفلان في الغيطان الشرقية، بعد الفجر يطيران الدبابير، أو قبل الظهر يصطادان

أبو المقص من على خوص الترع، شابان يعومان يعبران مياه أبو غالب عكس التيار، يسبحان، للبر الثاني، يلوحون للمداخن، يلوحون للأبقار والمواشي التي تعبر على المعدية باطمئنان.

قال الغريب ذو الشارب: "ألا تعلم من أنا؟".

ثم تابع وهو يبرم السيجارة بين كفيه، ويشعلها: "أنا ابن هشام".

تساءل عمر: "ابن هشام؟".

قال الرجل وصوته معبأ بالدخان: "الذي قابل يوسف وأخبره مرةً في قطار الدرجة الثالثة حكايته وكيف تاه".

تذكر الحكاية التي لم يكملها يوسف، والتي وعد أن أحدهم سيكملها له، وها هو ذا ابن هشام بنفسه، يخرج من حلم إلى آخر.

أخبره ابن هشام أنه رأى اليوم العجب، رجالًا يتساقطون من السماء، بجلابيب بيضاء، يمسكون بأيديهم أوراقًا، كأنهم يقرأونها في الهواء، أنه لم يصدق عينيه، وآمن بأنها معجزة، وسأله: "رأيتهم؟".

لم يجب عمر عن سؤاله، لكنه رد بسؤال آخر، "شوفتهم وإنت راكب القطر؟! من إمتى والقطر دا بيتحرك؟!".

فقال ابن هشام ضاحكًا: "لا أحد يعلم".

كان ما يزال كما هو ينفث دخان سيجارته التي لا تنتهي، وشعر عمر بالنعاس يطوقه، تثاءب عشرات المرات، ذرفت عيناه دموعًا من كثرة التثاؤب، لكن بعد دقيقة فقد العالم الضحل صلته به، وتدثر بدخان سجائر ابن هشام وتركه يقص قصته، كان منصتًا إليه بكل جوارحه، ولم يشعر رغم الدخان والنعاس بأنه حبيس فقاعة من الضباب، لم يهتم أكفت عيونه عن البكاء أم لا، لكن جفنيه تورما وانتشر الألم على طولهما كلما أغلقهما؛ فلم يستطع معهما النوم، لكن رغبته في النوم كانت تزداد كل دقيقة أكثر من ذي قبل، ومع ذلك أبدى اهتمامًا كبيرًا بابن هشام كان يتفحصه بدقة، كأنه يستشعر فيه أمرًا غريبًا، وفجأة بدأ ابن هشام يكمل حكايته بصوته الهادئ.

أخبره: "حين طاف بي الحزن طوفانه، أظلمت الدنيا في عيني، وبدا الوجود كابوسًا معتمًا، وما زال القمر -كما هو- صلبًا وقاسيًا، ينشر شعاعه البلوري البارد على قلبي". ثم نظر لخارج القطار ليجده القمر قد بدأ يظهر رفقة الشمس! فأشار لعمر ليخرج رأسه: "ها هو في الخارج"، وأشار مجددًا، فنظر إليه وكان عاريًا فضيًّا ولامعًا كما وصفه.

يتذكر عمر أنه في تلك اللحظة غرق في ذكرى عن أيام الخميس هو ويوسف يبسطون راحتيهما للدنيا، يزورن بحر أبو غالب، يلقون بأجسادهم في مياه النيل الضحلة الفاترة،

فتسري في أجسادهم رعدة خفيفة، ثم بعد دقيقة يعتادون إيقاع حرارتها، وتنتقل البرودة لأجسادهم، كم مرة رغبا في أن يسبحا إلى نهاية هذا البحر الذي لم يكن هناك ما هو أكثر رحابة منه، يتذكر حكايته التي كان يصيغها بشأن مياهه وبشأن نهايته غير المعروفة، وبشأن النداهة التي تأتي مع الغروب لتجلس على إحدى الضفاف، وتعزف على ربابة بيد وتمشط شعرها الطويل المنساب إلى عتبات المياه بيد أخرى، كان يقول عنها: "امرأة رشيقة وناضجة، لكن سيئتها الوحيدة أنها لا تنتمي لنا".

لا يدري كم مرة مات فيها، لكن ربما مرتين في بحر أبو غالب حين وجدا جثة طفل منتفخة طافية على سطح المياه الباردة، وقد قال بصوت ضاحك: "هذا أنا"؛ لذلك تركاه ولم يخبرا بشأنه أحدًا: "دعه يسير في حرية لم يحظَ بها"، هذا ما قاله.

يتذكر ذلك ويقول في نفسه: "ربما كان ذاك تصرفًا خاطئًا وكان يجدر بنا أن نخبر الشرطة أو أحد الأهالي، لكن بدا الأمر في وقتها كأنه الصواب ولا شيء غيره يمكن أن يكون في مثل درجة صوابه".

وفي رحلة المسير من الملعب إلى أعماق المدينة الغارقة في عباءة الليل، ونور النكتة يضيء الدرب لهما، ونور التهكم على العالم والسخرية من الالتزام يضوي في قلبيهما، وعاد

يتساءل: "الحرية التي تشتاق إليها في عز تكبيل: تلك الحرية مع من أجدها بعد اليوم؟".

حين نقلت له أمه الخبر، كان يعلم، وكان على دراية بأنها ستخبره أن يتجاسر، أدى بروفة تلك المصيبة في رأسه مئات المرات، لكنه لم يتوقع أن تصير حقيقة أبدًا، كانت تعلم مدى حبه له، وتعلقه به، كان يخبرها في طفولته: "أنا هتجوز يوسف!" فتجلس الأسرة في جو ضاحك من النكتة والسخرية، لكنها كانت تتذكر ذلك جيدًا، كما تتذكر أنه كان ابن موت، ورددت في نفسها: "ربنا يرحمه، ميغلاش على اللي خلقه".

يتذكر أنه لم يكتشف كل ذلك إلا حينها، أنه كان مكبلًا ويرغب في طيران سعيد، ربما هو أحد أحلامه التي كتمها في صدره وتمنى أن يحققها في زمان آخر زمان ما بعد الزمان، يبدو له الآن كما لوكان بالفعل ابنًا للموت، وهو يعلم الآن في جلسته على فراشه البارد أنه لم يعد بطل قصته عن موت البطل، كان ذلك في زمن آخر قبل أن يدرك أنه هو -يوسف- كان يخشى الوحدة أكثر منه، أنه يخاف الموت خوفه من الحياة؛ لذلك ابتدع كل شيء كمواساة يلصقها بروح عمر ليصبره، لأنه لم يكن يمتلك سوى أن يخلط فكرته عن الموت بالآمال يجربها على جروح صديقه، حتى يرتاح حين يداوي بيها تساؤلاته.

بالطبع يتذكر، يتذكر ويفهم الآن جيدًا، لِمَ رفض انتقاله إلى شبين، "ليس خوفًا من أن أصبح وحيدًا، بل خوفًا من أن يكون هو وحيدًا".

وتلك الرسالة التي أرسلها على واتساب، يفهمها جيدًا الآن:

"مبارك عليك مسكنك الجديد، أهنئك من هنا حيث كنا نجلس دومًا نتبادل الأحاديث حول النساء ونشعل سجائرنا على جذوة مشاعر قديمة حين يحين وقت تأججها، من هنا حيث المستقبل ومضة قد مضت. أعتذر طبعًا عن عدم المجيء لتوديعك. يقولون إنك كنت حائرًا تحمل حقائب كثيرة، أحقًّا أخذت كل أمتعتك؟

لم يقوَ قلبي على مشاهدتك تركب القطار، رغم كل أشواقي، لم أرد أن أكون دراميًّا في شيء ربما يكون عاديًّا ومعتادًا، لكن مهلًا لم أعتد غيابك، قد تلاحظ انسياب الكلمات حزينة كأنها آخر رسالة أكتبها لك، لكن ليس الأمر كذلك، كل ما في الأمر أني جلست الآن تحت السماء نفسها التي كنا نجلس في رحابها، أجلس الآن وحيدًا أستنكر ضيق المكان وأتساءل: أين أضع دموعي؟!".

انطلقت الدموع من مساكنها، لا يدري كيف يعيد العمر، وبدلًا من أن يطلب منه المواساة، سيضع هو يده على قلبه، ويخبره: "ضع دموعك وخوفك بين يدي".

## "نهاية حلم خرج من دائرة الأحلام"

تنحنح ابن هشام لينتشله من بين ذكرياته، وقال يكمل قصته من بين سحائب الدخان: "حملاني، القرد والقزم، إلى شيخ القرية الهرِم، وله حكاية من أغرب الحكايات؛ لا عمر له، كذلك كانوا يقولون عنه، كما أنهم لا يدرون كيف جاءهم، فقط، كلها قصص أخرى مختلفة ليس بينها رابط سوى أنهم وجدوه يحمل بيديه كتابًا غريبًا من ورق عجيب لا ينتهي، ويسير به إلى الترعة حتى وصل إلى الشجر وجلس تحتها، الغريب في أمر هذا الشيخ هو صبره النافذ على عدم مجامعة أي امرأة، وذلك قلب الحكاية، جاءه في يومٍ ما قرد غريب، ذلك القرد الذي استقبلني مع الإسكندريٍ، طرق أرضهم، ذلك القرد يأتي بأعاجيب ويمكنه الحديث، والتنبؤ بما كان ويمكنه معرفة ما سيكون، ارتاب الرجل في أمر القرد، لكنه سرعان ما عاد في رأيه مما وجد عليه هذا القرد من حسن الطالع، ونطق القرد: "أجيد الضرب على الرمال

سيدي، وأعلم مستقبلك وما يخفيه عليك القدر من أمره، وماضيك مبهم كل الإبهام، ولكن لا عليك منه؛ فأنت أعلم به" فزع الشيخ، لكن عاد ينظر إلى القرد، وينتظر حكمه بشأن مستقبله: "ستموت على يد ابن لك، سيقتلك دون رحمة ولا شفقة وسبب قتله لك هو وحده من يعلمه".

وكان ذلك كل شيء، تركه القرد في حيرته، كان متزوجًا من إحدى النساء التي نمت هناك فجأة كما كل شيء، لكنه لم ينجب، ومن يومها لم يلمس امرأته إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم".

اهتز القطار عدة اهتزازات شعر معها عمر أنه يستيقظ لتوه، وأراد أن يسأل نفسه لما هو مجبر على الاستماع لهذا الشخص، ولم يرد أن يحرجه وأن يخرسه بقبضة في أنفه، تململ عمر لا إراديًّا، ولكنه دون أن يراعي من أمره شيئًا تابع: "حين حملوني إليه، رفق بي وواساني في مصيبتي، وتركني أجالسه وأستمع إلى صوته وإنشاده، وأسكني في داره بعدما هدموا دار الإسكندري بعد موت امرأته. وكنت ألمح من بعيد زوجة شيخ القرية، فكانت كشمس مشرقة، لكن العمر قد أحالها إلى طلل وذكرى حتى سطوعها بدا خافتًا، أخبرني الشيخ أن أترك الحزن ليوم آخر غير اليوم الذي أحياه، وقال إنه سيزوجني أخرى لأُرزق منها بدل الابن عشرة، لكني لم أوافق، وأخبرني أن جميع الإناث متشابهات

ولن أجد الفارق بين امرأة وزوجتي أبدًا، ولم أوافق مرة أخرى، وقلت إما أنه ساذج إلى غير حدٍّ أو أنه حكيم لأقصى حدٍّ، ولم أهتم بسوى أن أدع أيامي تنقضي حتى جاء اليوم المشئوم فقد ذاع في الحي أن شيخ القرية لا يقرب امرأته لأنه لا يميل إلى النساء ويشتهى الرجال، ولذلك أسكنني جواره، وكذلك ليس للأمر أي علاقة بنبوءة قديمة، وعجبوا ورأوا أنفسهم أعقل من أن يصدقوا أن قردًا نطق، بل يعلم الغيب، وهنا لم يدرِ الشيخ ماذا يفعل، وحاول أن يتقصى حقيقة الأمر ومن وراءه، وكان القزم بالطبع خلف كل ذلك، كانوا جميعًا يعلمون أني خلاصهم، لكن الشيخ لم يكن يتوانى عن قتلي حين سمع كل ما قيل، فلا بُدَّ من تبديد الشكوك، ولكنه وجد حلًّا حكيمًا، وضاجع الشيخ امراته العجوز في ليلة قاسية، ارتجت الأرض فيها لصدى تأوهات المرأة وأناتها.

أما أنا فتركت البيت وغادرتها إلى الأرض الواسعة، وعشت على التصعلك، وجاورت القزم، حتى يعد لي القهوة، ولم يكن هناك بأس من أي شيء؛ ففي النهاية أنا على قيد الحياة، وهذا كل ما يهم، ونظرت إلى حياتي كم كانت طويلة ونظرت مجددًا إلى العمر لا أعرف كيف ينقضي بتلك السرعة الرهيبة بلا منطق في انقضائه، كنت أظن أني حين أصير رجلًا ستختلف الاعتبارات وستختلف حياتي؛ آمالي ونظراتي، توقعاتي وطموحاتي، لكن المأساة أن الإنسان

يبقى كما هو بلا أدنى تغير، حتى أحلام الطفولة تراودني من يوم لآخر، ولا أدري ماذا أفعل بها، وهل تليق تلك الأمنيات مع هذا الجسد؟! وهل تناسب هذا العمر أو لا؟!

واشتقت إلى أمي فجأة كطفل صغير، تلك المرأة التي حملت الدنيا على ظهرها، وحملت هم قلبي من بين حملها، ولا شيء أثقل من خفقان قلب مضطرب في حمل ظهرك، فبكيتها ضمن من بكيت، وفي نهار ما بعد ليل طويل مليء بأحزان العمر، سلمت فيه بموت الجميع، وتقبلت الأمر شبه جزع في ليلة هي الأسوأ؛ فليلة تتذكر فيها أسوأ لياليك هي أسوأها على الإطلاق، صدقني.

وفي ذاك النهار البارد، جلست عند الترعة أرى العالم كأنه شيء خارج عن إرادتي وعن وجودي، وكان ذلك إحساسًا رائعًا بأني مسلم بلا عقلانية للوجود منسجم فيه، جاءتني فراشة صغيرة حطت على إصبعي الصغير، ثم طارت وتبعتها، حتى وجدت ظل كائن على العشب، وحين دنوت منه تناثر كقطع بنية، ملأت الدنيا حولي فراشات، مسكينة تاهت عن النعيم لا شك تجاوزتني، كما تجاوزتني الدنيا، وشعرت بها حول بدني حتى اقشعر جلدي، طارت للغرب، لتلف حول أشجار البرتقال عوضًا عن غربان تلك المنطقة، كان نهارًا مزيفًا من تلك التي تشعر فيها أنك تستعيد عافيتك، وتُوجت ملكًا على الحياة رأيت الأفق ورديًّا ملطخًا بحبر

انسلَّ من قلبي، قلبي الذي اعتصرت فيه زهرة الحياة، رغبت كما لم أرغب يومًا في أن أوقع بحبرها صك حريتي إلى الأبد، ورضيت هنا بما كان، وكان قلبي مستعدًّا أن يلقى الحياة بما تبغي هي أن تكون، ولكن ليس في استسلام، ولكن في لا مبالة الحر، الذي لا يريد أن ينخرط في عبودية الحزن مرة أخرى، ثم جاءني الخبر، قُتل الشيخ على يد ابنه الذي كان قد وُلد منذ عدة أيام ولادة عجيبة، وكان نموه مع هذا أعجب ما يكون، وصار قاتلًا في سرعة عجيبة، هُرع القرد والقزم إليه كمن رأوا طاقة الفرج تنفتح أمامهم، وعرفوا بما كان، واجتمع أهل القرية لينظروا في الأمر، كان الطفل في طور الرشد ولم تمضِ على ولادته عدة أيام، وحين سُئل عن سبب قتله لأبيه قال: إنه ظل حبيس بطن أمه ثلاثين عامًا بسبب امتناع أبيه عن مجامعة أمه، وقد نذر نذرًا حين يخرج إلى الدينا سيقتله، ويحكي أنه كان يرى العالم كأنه حلم عجيب، أنه رأى قردًا يتكلم في حلمه هذا، وحينها تقدم القرد ساحبًا مطية سوداء في يده وتكلم، وفزع الناس، لكنه قال: "هذا أنا يا سيدنا، بديع، الزمان أبدعني، وصديقي هذا القزم، نحن سبب تخليصك من أسرك، ولهذا فأنت مدين لنا بطلب". وذهبا إلى الجانب الغربي حيث عظام الموتى راقدة في سكونها وجاؤوا بالكتاب الأخضر والقزم الذي يشبه القزم الأول، ودخلوا ليفتشوا عن الكتاب المشابه، وحين وجدوه، حمل كل قزم كتابًا، ووقفا أمام بعضهما بعضًا، كصورة وانعكاسها، وبعد دقيقة سقط

لوح زجاج وتهشم، ولم يتبقَّ سوى كتاب واحد وقزم واحد. حمل القزم الكتاب، وسار القرد، وساعده بعض الرجال في صنع محفة خشبية من جزوع النخيل: "وسمعت بديع الزمان ينادي: "أحضروا عظام الإسكندري عليها" فذهبوا بالمحفة وعادوا بها يحملون عليها العظام بعد أن تآكلت الأوراق التي حِيكت له من أجل كفنه، لم أكن أفهم شيئًا، كنت جالسًا على الطين، أشاهد كل شيء كأنه لا يعنيني، وبعد أن جاءوا بالعظام على المحفة، وضعوه أمام الرجل، وطلبوا منه أن يركب تلك الناقة لتتحقق النبوءة كاملة فأطاع صاغرًا، وحين امتطاها كفارس مغوار بدأت تجري به بسرعة لا مثيل لها، وهو يركز على الاتزان فوقها بهدف الوصول إلى هدفها، وسيستدلون بها على الطريق الذي جئت منه، حمل الرجال المحفة، وأمروني أن أحمل معهم وأسير خلف طريق الناقة إلى الطريق حيث جئت حين أتيتهم أول مرة من ناحية الترعة، قال بديع الزمان "سيختفي القمر البراق لأول مرة وسيأتي قطار لا يأتي في العمر سوى مرة".

وهذه هي المرة الأخيرة، طاب لي حديثه مع غرابته، لكني اشتقت إلى عالمي الذي أعرف أنه لن يعود كما كان، فأنا لم أعد كما كنت وتنهدت كثيرًا، ونبض قلبي لهفة، كما ذرفت الدمع على ما مر بي نتيجة الضياع في تلك الرحلة الطويلة، وجَنَّ الليل علينا فجأة ونحن واقفون؛ فسرنا حاملين المحفة

في الاتجاه نفسه، والقرية تتبعنا يحملون شموعًا صغيرة تلألأت على صفحة المياه حين مررنا بجانبها، وحين نظرت إلى الترعة ولأول مرة أدركنا ألا انعكاس لضوء القمر على صفحتها، فنظرنا إلى السماء، وكان القمر بالفعل قد اختفى، هلل الجميع، وساروا بصبر طويل لأن زمن سيرنا كان زمنًا غير محدد، ثم وجدنا القطار ينتظر في صمت مقدس، رفعنا المحفة وأدخلناها القطار بصعوبة ثم صعد الجميع القطار في لهفة عجيبة كأنهم كانوا تواقون إلى رؤيته، تواقون إلى المغادرة، لا أذكر كم مضى علينا من الأيام، لكننا الآن هنا وأن ألتقيك لأحكي كل ذلك لك، وربما سيستمر الحكي إلى الأبد".

نظر في وجهة، بتمعن، شارب ضخم ولحية طويلة، وشعر مرقط بالشيب، لكن الأنف والعينين العسليتين والشفتين القرمزيتين؛ هي ملكه قطعًا، وردد: "يخلق من الشبه أربعين"، لكن ذلك الرجل به شيء غريب، وتجرأ ليسأله ثانيًا: "من أنت بالله؟".

قال في يأس بادٍ: "في نهاية الرحلة الطويلة يواجه المرء نفسه".

وصمت الرجل دقيقة ثم تابع: "لعلك تدري، لكن كل ما أنا موقن به أن سبب وجودي ووجود هؤلاء حولك هو أنت، نحن كل ما عشت غارقًا به، نحن ما عشته ورسبته، وتلك الحياة التي عشتها أنا، هي ما ستعيشه حين تفارق كل شيء؛

لأني أنا أنت، ولأني أدرك أني الآن قد خرجت من جحيم تلك الحياة؛ فهذا يعني أنك ستجد مخرجًا من مأساتك".

وفجأة نهض الرجل وسار ناحية الباب، ثم اختفى، نظر في القطار، فلم يجده وترنح كالسكران مع القطار المهتز، وبعد ثوانٍ توقف القطار فجأة في محطة أشمون، بحث عن أي أحد في القطار؛ فوجد فراشات ترفرف هاربة من العربة الأولى فاتبعها إلى الخارج، وبعد دقيقة خرجت جحافل من الناس يحملون محفة فوقها عظام.

يتذكر أنهم كانوا يسيرون في جنازة مهيبة ملؤها الناس، واصطدم بهم، ثم اعتدل في ترنحه وسار معهم، ثم صادف وجوهًا يعرفها، راعه المنظر وخفق قلبه بشدة، وتجلى في نفسه الرعب تارة والألم تارة، وحين رأى أباه بينهم يحمل الكتاب الأخضر، نحا نحوه حتى يراقبه، كان المشهد المهيب يتحرك أمامه، كتم أنفاسه المتدافعة بعنف حتى لا يصرخ، وانتبه إلى صوت النحيب القادم من الأمام يردد "يا خسارة شبابك". وحين اقتربوا من المقابر، بدأ المشهد يدور حول شيء ما كأنه يحاول تجاوزه، ولا تستطيع المحفة المحمولة أن تمر هي وحاملوها منه، فبدأوا يدورون في تتابع وصوت نحيبهم يعلو، وأفزعه صوت الهمهمات، وحين اقترب من مركز الدائرة وجد أباه، واضعًا الكتاب، يدفع بالصفحات للقزم، حتى يخيطها، ورماه تدافع الناس إلى وسط الدائرة

ليدقق تفاصيل الغائب عن قرب، وحينها توجه بنظره إلى تفاصيل المكان المألوف، فكان بيتهم القديم، وكانت تلك دهاليزه الطويلة اللانهائية وتلك حيطانه المتهالكة المطلية بكلس أخضر يتساقط على الأرض، بيتهم الذي اتسع ليضم كل المشيعين في سراديبه المظلمة، كان صوت المشيعين يتصاعد "لا إله إلا الله"، مع همهمات، وحين صمت الجميع أنزلوا العظام فصارت العظام يوسف، اقترب بخطوات، تحرك متثاقلًا كأنه يمشي ناعسًا، ثم نظر إلى عمر في حزن ومد يده للأوراق التي صارت الآن كفنًا أبديًّا في دهليز البيت الغارق في قدسيته الجديدة، وأخذت أصوات الناس تدور في سقف البيت تخرج من الأبواب وترتجف لها الشبابيك، كانوا يدورون ثلاثتهم في يأس يرددون في أصوات متكررة "لا إله إلا الله "بأصوات متباينة تظنها باكية حينًا وضاحكة أخرى، وعلى حين غرة انتهى القزم الذي صار الشيخ الأنصاري من ربط الأوراق، رقد يوسف على بساط الورق، وابتسم لعمر وأسبل جفنيه حتى ابتلعه الورق وكفنه في ثناياه الغزيرة، يوسف بأكمله قد صار في تلك الورقة اللانهائية مطويًّا كلا شيء البتة، وحمل كريشة ضئيلة تزداد ضآلتها مع الوقت لكن بحرص، ثم ناولوه للناس الواقفين أمام باب قبره، باب له خضرة الغثيان تسيل عليه خلاصة صبارة اسودت من الشمس أو خلاصة أحلام مسكين ضائع جفت مع الأيام، أرقدوه في جوف القبر بنحيب غير منقطع، ورحل في حزن متألق مودعًا

الدنيا التي رغب في أن يملأها بوجدانه، ثم كان الصمت الطويل، الذي تبعته همهمات وسيول وأمواج من الناس تتدفق خارجة دافعة إياك خارج المشهد. دفعتك إلى العراء لتلقي نظرة كاملة على كومة الأموات، وفي حسرة المودع بكيت، أكانت دموعًا أم أن جرحًا في عينيك قد انفتح؟ "فارضَ اللهم عن عبدك يوسف".

## "كم نهاية نحتاج إليها لتنتهي حكاية للأبد؟"

تدرك الآن أنه لا مفر من الخروج، حتى إن كان ضوء الصباح يذكرك بكل الأيام التي لم تذق فيها طعم النوم، تدرك أنهم قد أعادوك بالأمس فقط، وذلك بعدما وجدوك ملقًى في زحمة الدفن، واليوم فقط تجلس لتتذكر كل شيء، في غرفتك القديمة الباقية إلى الأبد كحصن منيع ضد ضربات الزمن. تنظر إلى الدبلة الفضية في بنصرك الصغير، ثم تقبلها قبلة سريعة. وتفكر في حديقة تزرعها زهورًا مختلفة تضع بعضًا منها على قبور الأحباء. وبقيت على تلك الحالة في المنزل حتى العصر، وحين يؤذن العصر، تقرر الذهاب لتصلي في الجامع الكبير، تصلي، تتأمله، كأنه لم يكن موجودًا، وإنما أنشأته حكاية يوسف، وبعد الصلاة تدور حوله تجد الباب الذي دخلوه في الحكاية، وحين تدفعه ينفتح ببطء وثقل، تدلف للدخل، السلم الطويل أمامك يفضي إلى مكان المجهول، تفكر في التراجع، لكنك لم تجد

ما تخسره. تنزل ببطء، درجة درجة، الجو ثقيل بالأسفل، وتزداد الرطوبة أكثر فأكثر، تصل إلى أرض مستوية، وتجد ضوءًا وظلالًا وأصواتًا تسبح الله، أنت خائف. تخاف دائمًا في البداية، تخاف الدخول دومًا، لكنك أدركت أنك هنا من أجلهم، وتدخل الحضرة. السجاد الأخضر مبسوط على مد بصرك، والقناديل الصفراء مشتعلة كشموس صغيرة. كل شيء يشع بدفء يشمل المكان بأكمله، وصوتهم يردد بانسجام كأن جميع الأصوات ذابت في صوت واحد تلون بلون الشمس: "وارضَ اللهم عن عبادك، وارضَ اللهم عن عبادك".

بصوت منغم كأنه قادم من عالم آخر، تلمح في نهاية المكان نورًا ساطعًا وفي المنتصف كتابًا، هو الكتاب ذاته، كأن الحكاية لا تريد أن تنتهي. تقترب من الجالسين الذين هم عبارة عن صفين متقابلين من الرجال يرتدون عباءات بيضاء شديدة الصفاء، وقبل أن تقترب من الكتاب، تنظر للوجوه، تعرفهم جميعًا. الشيوخ من قهوة محفوظ، أبو جدك، وحتى يوسف، جميعهم ينغمون الدعاء ويترنمون في انسجام الحضرة، تريد أن تلمسهم أو تعانقهم، لكن تشعر بأن ذلك سيخرج المكان من قداسته، تتجه ناحية الكتاب، تأخذه بيديك وتجلس لتقرأ فيه بطرف عينيك: في أول الصفحات: "أول ما كتب القلم كتب القلم الله".

تتابع التقليب في انغماس:

"استيقظت على حلم الولاية وكتبت في الكتاب ما تلقفه القلب في منامي أن تضيع يا حافظ أن تضيع إلى أن يشاء رب العالمين فارضَ اللهم عن عبد حافظ بن إبراهيم".

ثم في الصفحة التالية قرأ:

"ورأيت في المنام عمر يتوه من بعد أبيه يسيح في الأرض إلى حين وقبل عمر يموت يوسف إسماعيل فارضَ اللهم عن عبدك يوسف بن إسماعيل".

شعر حينها بثقل في قلبه، وخدر في جسده وهو يقلب صفحاته، التي مُلئت بأسماء الأهل والأصدقاء، وقبل أن يدقق النظر في اسمه شعر بيد فوق كتفه، فتمنى أن تكون يد يوسف، شعر بدفئها قبل أن يراها، فكانت كما أراد. ابتسم يوسف ولم يتكلم، وأشار لعمر أن يضع الكتاب وينهض؛ فأغلقه ببطء وقرأ وهو يغلقه:

"وارضَ اللهم عن عبادك المباركين قد ساحوا في الأرض رأوها بطولها وعرضها وأتوك بعد حيرة فأملأ حياتهم الأخرى بعيش أحلام النعيم".

ووضع الكتاب، وعيناه تتلألأ بدموع صغيرة متتابعة ودافئة، لكنه حاول مدارتها بابتسامة اللقاء، كمن يعاتب نفسه أن يكون آخر لقاء مليئًا بالدموع، خرجا وسارا، صعدا السلم

معًا دون كلام، وعمر لا يرفع وجهه من وجه يوسف، وحين اقتربا فتح له يوسف الباب، لكنه رفض الخروج، وأشار لعمر أن يخرج، وحين عبر عمر الباب نطق يوسف أخيرًا بصوت عذب وقال: "يا حبيبي، لسه مجاش الوقت".

وانغلق الباب وراءه للأبد.

## "ما يشبه النهاية"

تسير متثاقلًا متأملًا الموقف كاملًا، وفي طريقك للمنزل تراودك رغبة في التعري والخلاص من كل ذلك الماضي والسباحة في بحر أبو غالب. فتنحرف عن الطريق وتسير طويلًا. توقف سيارة أجرة توصلك للمكان، حين تنزل، يمتلئ قلبك بالحنين إلى أيام الصبا البراقة مع صديقك القديم. تتقدم وتهبط السهل المنخفض. ترمق مداخن مصانع الطوب، دخانها كما كان دومًا يعانق السحاب. تخلع الجلباب ناظرًا حولك في سخرية من عقلك على أن يتجنب نظرات الجنيات القادمة مع الغروب. تلقي السلام على عمال المعدية الذين يتذكروك، يبتسمون لك ابتسامة الرفاق، وقبل أن تلمس المياه الباردة تلمح يوسف في الأفق البعيد للمياه، تراه رؤية العين يسبح معك في نهاية المجرى الطويل كأن الزمن حاضر بكليته في مكان واحد. تنتحى جانبًا بعيدًا عنهم لتتركهم في خصوصية المكان يلهوان بدفقات الزمن

المتقلب في عمر لن يكون أطول من جذع شجرة. ها هي ذي المياه أمامك، وها هو ذا الجانب الآخر هناك. تهبط خطوتين شاعرًا بنسمة هواء بارد وتسقط معها ورقة صغيرة، أمامك، تتأمل الورقة السابحة مع التيار، ترغب أن تمتلك الحرية لتسبح مثلها دون الحاجة لتخطيط. تدنو أكثر إلى الماء تمد يدك الصغيرة إلى صفحة المياه المتلألئة، وبأصابعك الباردة تحسس مياه النيل تود لو غمرت فيه قلبك.

وتتساءل: لِمَ يُوجد أبوك في كل مكان حولك؟ وحين تعود بالذاكرة تكتشف أنه كان هو نفسه حارس العقار، فكيف لعقار بمثل هذا الصغر أن يكون له حارسًا؟! فضحك وأنت تتذكر ابتسامته حين لمحك تحمل السجائر، وتقول في صوت ضاحك: "بالطبع كان هو".

تحاول التخلص من أفكارك، تنظر للأفق البعيد للمياه التي كانت تبتلع الشمس، تهبط كليًّا إلى الماء، تتساقط من السماء الأوراق المطوية ورقة ورقة، ورقة ورقة.

يسقط النبأ أمامك، ويقع في كل مكان، ترفع رأسك لترى الورق وهو يسقط؛ فتلتقط واحدة قبل أن يغمرها الماء، ثم تفتحها وتقرأ فيها: "فارضَ اللهم عن عبدك عمر بن حافظ بن إبراهيم".

تلقيها وتسبح ربما حتى بعد الغروب، تسبح غير مبالٍ فربما ما يزال لديك اليوم لتعيشه أو ما يزال لديك عمر طويل.

وتعود للمنزل، لتجد أمك تحضر الطعام، فتأكلا معًا، تخبرها عما رأيته في الجامع الكبير، فتجيبك أنها تشعر بغريزة الأم، أنهم جميعًا ينعمون الآن في الجنة. وأردت أن تسألها كيف مات، لكنك لم تجرؤ على ذلك خوفًا من أن تفتح جراحًا في صدرك لن تقوى يومًا على مداواته، تجلسون فتخبرها عما حدث أيضًا حين سبحت في بحر أبو غالب، حينها تشهق، وتصرخ في وجهك: "عاوز تروح إنت كمان!".

لم تفهم وتستفسر منها عن السبب، دائمًا ما كنت تسبح هناك، ولم تعترض أبدًا، لكنك أدركت بقلبك أن هناك شيئًا استجد بدل موقفها، وتشعر بأنه يرتبط بيوسف، فتخبرك: "يوسف مات غرقان في أبو غالب، نزل يعوم ومرجعش، يومين كاملين والغواصين بيدوروا عليه لحد ما لاقوه يا حبة عيني" ها هي ذي تبكي، وأنت تصمت. تتذكر كل النهارات التي سبحتما فيها معًا، كان أنينًا مكتومًا هذه المرة. وحين دخلت غرفتك ووضعت رأسك على الوسادة، طار النوم من عينيك. عيناك أشبه بجمر متقد، وسيقسم الجميع في ما بعد أنها معجزة الرؤية، وسيقول الطبيب أنه مرض نادر أصابهما، لكنك لن تهتم أبدًا، ستذهب غدًا إلى بيت يوسف، لتطيب خاطر أمه، ولتخبرها أنك أنت عمر حافظ، لست سوى يوسف آخر يسندها حين تريد.

لكن من يخبرك عن حسرتها وهي تنادي عليه: "يا ولدي اطلع"، وتردد دعاء الغرقى الأبدي بصوت من حلق مذبوح:

"يا من نجَّى يونس في بطن الحوت"، وتسير حول المكان المنكوب، تتسلق التل، تجسد صلاة الحسرة صعودًا وهبوطًا، تمد يدها المرتعشة للماء وتردد: "الميَّه باردة يا يوسف..."، وحين تصرخ، ينهار شيء في الحاضرين.

من يخبرك عن حيرتها حين يلقيه الموج؟ إذ تزغرد للوهلة الأولى، كفرحة الرجوع لحضن يعقوب، لكنها تجده في أشد تشكيلات الجسد قسوة، مجرد قميص منتفخ وجاحظ، يعلوه وجه أزرق مبلل، لا أثر ليوسف فيه.

ستبكيان، لكنها ستشفق على عينيك، فتقطع بكاءها بحديث عن مقدار حب يوسف لك، كيف بكى حين علم أنك ستسافر وتسكن، وسيُترك هو هنا وحيدًا. كيف شعر بالوحدة حتى إنه بدأ يحادثها، ويحكي لها عما يحدث معه وكان لا يفعل ذلك أبدًا، لأنه كان يشارك عمر كل شيء يبوح له ويشتكي له، ستخبرك أيضًا أنك حين سافرت زعل جدًّا! وستتبع كلماتها بجملة يا حبيبي، الله يرحمك، طلبت لنفسك الرحمة يا ضنايا. ثم تربت على ظهرك، وتدخلان غرفته، لتنظرا إلى مكتبته الصغيرة، تعرف كل عنوان موضوع أمامك"، تعرف لأنكما ترتبانها كل أول يوم في بداية كل إجازة، كذلك تعرف كل شيء عن الصور المعلقة فوق سريره، لأنكما وحدكما من تسنى لهما عيش تلك الحياة معًا. ستبتسم بأسًى، وكنت دائمًا تسمع كيف يبتسم الناس بأسى، لكنك لم تعرف

إلا اليوم ماذا يعني أن تبتسم بأسًى لرؤيتك الصور التي كانت تجمعكما معًا في زمن الفرح والابتسامات.

وحين تخرج هي ستبقى أنت، وستقترب من الحائط المقابل لسريره؛ لتقرأ نصًّا اقتبسه من كتاب وكتبه بخط عريض: "إلى أين تمضي يا جلجامش؟

الحياة التي تبحث عنها لن تجدها.

فالآلهة لما خلقت البشر؛

جعلت الموت لهم نصيبًا،

وحبست في أيديها الحياة".

تعرف كيف تبكي حين تعود أدراجك إلى المنزل، إلى حجرتك الصغيرة، إلى شباكها الضيق وشيشه المثقوب، الذي ستتدفق عليه الشمس حاملة الذكرى إلى الأبد. لكنك ستترك الحجرة إلى الصالة لتجد أمك فوق كنبتها الصغيرة تستمع إلى المذياع بجوار الكانون. أشياؤكم القديمة كما هي، لكن ينقصها شيء. ستنظرون إلى بعضكما بعضًا في صبر. وحين تجيء أختك الكبرى، ستجلسون ثلاثتكم على الأرض في رحابة الصالة تحت صوت القرآن.

يعرف الجميع أن شيئًا ما يزال ناقصًا، لكن أحدًا منكم لن يقول. وحين تصنع أمك القهوة كعادتها بحنان لا يضاهيه شيء، سترفضها في أدب. تضع رأسك المتعب فوق قدمها

الحنون، لتداعب شعرك المتقد بأصابعها الفاترة. تغمض عينيك، ثم تسمعها تتثاءب. تتلو رقية حافظة، رقية محفورة في أعماق رأسها. وتخرج حكاية قديمة من دفاتر الذاكرة، تسمعها تتثاءب مجددًا وتقول: "كان ياما كان...".

رأسك تعرف الحكاية. تفتح عينيك.